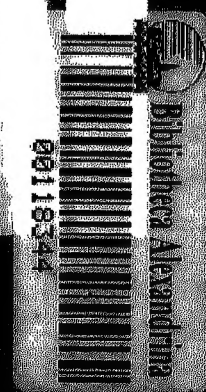


دَفَائِرُ فِلَسْطِينِيَّة

معين بسيسو



دار الفارابي - بيروت



دفاتر فلتطبيقات

حقوق الطبع باللغة العربية محفوظة
للمؤلف بالاتفاق مع (دار الفارابي)
بيروت ص . ب ٢١٨١ وكذلك حقوق
الترجمة والطبع باللغات الاجنبية

معین بسیسو

دَفَائِرُ فِلَسْطِينِيَّة

[illegible]

دارالفارابی - بیروت

19VA

الطبعة الاولى - مايو - ايار ١٩٧٨
الطبعة الثانية - يوليو - تموز ١٩٧٨

الأهدأ٦

الى شعبنا الفلسطيني في زنازين
الأرض المحتلة يرفض أن يستنكر
فلسطينيته .

مفاتيح

« انهم يقولون عنك يا اوزوريس ...
ولو انك ترحل الا انك تعود ثانية .
ولو انك تنام الا انك تسيقظ ثانية .
ولو انك تموت الا انك تبعث مرة اخرى .
قف ..
حتى يمكنك ان تسمع ما فعله هوريس لاجلك ..
ان هوريس يجمع لك اعضاءك حتى يلم شمل اجزاءك دون نقص عليك .
يا اوزوريس .
انهض ...
ان هوريس يهبك » .

« من اوراق البردى »

هذه الدفاتر

... ها هي خمسة عشر عاما تمر على هذه (الدفاتر) والتي عاشت في
الزنازين اكثر مما عاشت في الشوارع - رغيف السجون الذي اكله لاعوام طويلة
الشيوعيون الفلسطينيون في قطاع غزة واصدقاؤهم المناضلون الوطنيون -
والذين رغم ظروف الحصار والعزلة والمطاردة والضربات البوليسية المتلاحقة ،
كتبوا احدى السمفونيات الهامة في تاريخ شعبهم . فهم الذين هندسوا ومجروا
انتفاضة مارس التاريخية ضد مشروع اسكان وتوطين اللاجئين في شبه جزيرة
سيناء عام ١٩٥٥ واستقطوه ، وكان اول شهيد فلسطيني يسقط رميا بالرصاص
في الشارع هو شهيد الحزب الشيوعي في قطاع غزة : الرميح حسني بلال
محتشنا شعار حزبه :

- كتبوا مشروع سيناء بالحبر
وسنحو مشروع سيناء بالدم

وهم في ظل الكعب الحديدية للاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة عام ١٩٥٦ ، كانوا الصوت الاول واليد الاولى للمقاومة والعمود الفقري للجبهة الوطنية المتحدة . وفي اعقاب جلاء قوات الاحتلال الاسرائيلي للقطاع ، وقفوا مع كل القوى الوطنية المناضلة على اختلاف اتجاهاتها السياسية ، ضد مؤامرة تدويل قطاع غزة ، وعلى اكتناهم عاد ممثل الرئيس جمال عبد الناصر : - الفريق محمد حسن عبد اللطيف - الى ارض القطاع .

وهم في عام ١٩٥٨ : وفي قلب الجبهة الوطنية المتحدة ، كانوا المتاريس التي تكسرت فوقها رقبة المؤامرة القديمة - الجديدة . الحاق قطاع غزة بنظام الملك حسين .

وفي عام ١٩٥٩ : كانوا مع اصدقائهم الوطنيين الذين شحذت على رقابهم سكين مقصلة القوى الفاشية والشيوعية السوداء ، في اكبر حملة مكاثرة هجبية ضد الشيوعية حيث اقتحمت مدارسهم ومراكز اعمالهم على امتداد القطاع ، بالهراوة والحجر والمسدس ، وحيث صدر اكثر من فرمان يبيح سفك دمهم ، فما استنكروا فلسطينيتهم . وما عضوا الشيوعية .

وهم من ابريل ١٩٥٩ الى مارس ١٩٦٣ - رغم سقوط اقل من عدد اصابع القدم الواحدة - في زنازين السجن الحربي الدموية ، وفي معسكر التصفية الجسدية والسياسية في الواحات الخارجة ، قاوموا حتى - حافة الموت - مع رفائهم في الحزب الشيوعي المصري ، ان يفتحوا ابواب بيوتهم باقلام استنكار الشيوعية ، وان يقتصفوا بقذائف الورق : الوجه الاجمل في هذا العصر - الوجه السوفياتي - وكان لا بد من كتابة هذه الدفاتر :

- الجملة السياسية التي كانت تقول : ان نظام السادات . سيقوم باستغلال هذه الدفاتر . لم تعد قائمة الآن . وبالذات بعد مرحلة : الكتيست - لارنكا ، وبعد لقم الرصاص التي يملأ بها نظام السادات كل يوم انواء العمال والفلاحين والطلاب في مصر . والهتاف العلني الذي اطلقه بسقوط الشعب الفلسطيني في شوارع القاهرة ، وبعد ان تحولت اضراس السادات الى مطبعة للثورة المضادة ضد كل منجزات الجماهير الشعبية المصرية العريضة - في مرحلة جمال عبدالناصر - وبعد ان اعاد السادات بناء - الحرس الحديدي - ضد حركة التحرر الوطني العربي وحركة التحرر الوطني الامريتي ، وحركة التحرر العالمية . واصبح الناطق الامريكي الرسمي في المنطقة لمكافحة الشيوعية والوطنية والديمقراطية .

- والطقس الساداتي الرديء الذي يضرب الجماهير العربية العريضة في مصر . بجلبيد الثورة المضادة بكل ثقلها الامريكي - الاسرائيلي - الرجعي العربي ،

يؤكد ان عملية تفتيس مرحلة معسكرات التصفية في الماء في : - ابو زعل ، السجن الحربي ، الواحات الخارجة - ليست أبداً عملية تفويم للحركة الجماهيرية ، وانما هو القرار باغراقها .

ولم يكن الاعلان المشؤوم لحل - الحزب الشيوعي المصري - بعد مرحلة الخروج من زنازين معسكر الواحات الخارجة ، غير اعلان تبليط - اتوستراد الثورة المضادة - وان كل التبريرات والتفطيرات التي صاحبت ذلك الاعلان ، في الكلمة الاولى والاخرة . كانت ضد الطبقة العاملة في مصر . وضد الطبقة العاملة العربية كلها ، وضد جمال عبد الناصر نفسه . وقرار حل الحزب هو في مستوى قرار تجريد الثورة من سلاحها تماماً .

- ان مفهوم - الاوقات غير الملائمة - ووضع دفاثر مرحلة العداء للشيوعية للاتحاد السوفياتي - على الرف - حتى تجيء الاوقات الملائمة - بحجة زيادة صيد العدو الطبقي والوطني - ضد مرحلة جمال عبد الناصر - ليس غير كارثة . فتاجيل نشر سياسة العداء للشيوعية ، هو وحده الذي يرفع رصيد العدو الطبقي والوطني . وطريق النضال ضد الامبريالية العالمية والصهيونية والرجعية العربية . لا يمر ابداً بمعسكرات الاعتقال التي تفتح لقادة الطبقة العاملة الفلاحين والمثقفين الوطنيين .

- ان كل الاوقات ملائمة تماماً - مهما ارتفع ترمومتر التضحية . وهذا ما يعيه الآن بوضوح تام . الرفاق في الحزب الشيوعي المصري . وبعد التجربة لدامية لحل الحزب .

- خلال اكثر من حوار . مع اكثر من حزب شيوعي في الوطن العربي - وفي لعالم - فلقد اتضح وبعيدا عن قوالب الاسمنت الثورية . الجاهزة - ان نضال لشيوعيين والوطنيين الفلسطينيين في قطاع غزة مع رفاقهم الشيوعيين والوطنيين لمصريين في معسكرات الاعتقال . يجب ان يتكلم عن كيف قد تمكن شيوعيون فلسطينيون ومصريون . قد صدر الحكم عليهم بالموت - رمياً بالجوع والعطش . العربي والكرابيج وانياب الكلاب - رمياً بالعصي حتى الموت - كيف تمكن شيوعيون فلسطينيون ومصريون - بلا صيدلية وبلا كتاب وبلا راديو ، بلا رسالة ، بلا جريدة في عنفوان مراحل التصفية السياسية والجسدية ، كيف تمكنوا من احمود والانتصار على برنامج الابادة والردة .

- وكما ان اخطاء الشيوعيين لا تخصهم وحدهم ، بل تخص الجماهير ايضاً ، نها تنزل الضرر بنضالها ، فمواقفهم الصحيحة ، ليست قطاعاً خاصاً لهم بل طاعاً عاماً للجماهير .

— ان عددا من الكتب قد صدر عن رفاق الزنازين المصريين ، عن التاريخ المرصع بالدم ويندى الشيوعية حول تجربة الحزب الشيوعي المصري في — أبو زعبل والواحاح الخارجة — فكان لا بد أن تكتب ومن موقع المسؤولية الاولى — هذه الدفاتر — حول تجربة الحزب الشيوعي في قطاع غزة واصدقائه الوطنيين في السجن الحربي وفي الواحات الخارجة .

وكان لا بد ان تذهب هذه الدفاتر بعيداً في تاريخ الشيوعيين الفلسطينيين في القطاع على امتداد احد عشر عاماً من ١٩٥٢ — ١٩٦٣ ، حينما خرجت آخر مجموعة منهم من بوابة السجن الحربي .

— ان تاريخ الانتفاضات السياسية والمسلحة — للجماهير في قطاع غزة . في ظروف الاحتلال الاسرائيلي لم يصعد في غواصة . ولم يهبط من طائرة هيلوكبتر ، بل جاء نتيجة حتمية للنضال الشيوعيين والقوى الوطنية المناضلة وبالذات عبر احد عشر عاماً من النضال الدامي . حيث تم تدريب الجماهير العريضة — في الشوارع والخيمات — على النضال السياسي المباشر — وان عدداً كبيراً من المقاتلين في صفوف الثورة — خارج قطاع غزة — هم الذين تثقفوا سياسياً في المدارس — على ايدي اساتذتهم من الشيوعيين والوطنيين . وهم الذين كانوا — قلب التظاهرات الخفاق — تطلاب الامس هم مقاتلو اليوم .

— ان عددا من الرفاق في الثورة الفلسطينية : كانوا يلحون علي . ان اقوم بكتابة هذه الدفاتر وبالذات في هذه المرحلة التي تلاحق فيها القوى التقدمية في الداخل والخارج وتنتشر فيها كوليرا العدا للجبهة الوطنية في الضفة الغربية وقطاع غزة .

— ان ثقة رفاقي في الحزب الشيوعي في قطاع غزة ، وطيلة مرحلة الاحد عشر عاماً في موقع المسؤولية الاولى في الحزب ، تفرض علي ان اقدم هذه الدفاتر الى المطبعة ، ومن ثم للمكتبة الفلسطينية ، والى مكاتب الاحزاب الشيوعية في الوطن العربي ، والاحزاب الشيوعية في العالم ، وهذا هو ما يستطيع ان يقدمه — رفيق في المنفى — الى رفاقه في قطاع غزة — حزباً وجبهة وطنية .

— لقد ارغمتني ظروف الاحتلال الاسرائيلي للضفة الغربية وقطاع غزة ، على تقديم بعض أسماء رموز هذه الدفاتر بالحروف الاولى ، كما ينطبق هذا على بعض أسماء تلك الرموز في هذا الوطن العربي او ذاك .

— في هذه الدفاتر وردت بعض الاسماء التي لعبت دوراً ، وسقوطها فيما بعد ، هو مسؤوليتها وملكيته الخاصة ، بحينما كانت تلعب ذلك الدور في هذه المرحلة او تلك ، كانت تلعبه باسم الشعب فأصبح ملكيته .

— ولا بد لي ان اسجل اعترازي بالملاحظات التي جائتني من الرفاق في الثورة الفلسطينية ، ومن رفاقي في الحزب الشيوعي في قطاع غزة ، بعد ان قام الشاعر محمود درويش بنشر الحلقات الاربع من الدفاتر في مجلة « شؤون فلسطينية » . (العدد ٧٠ ايلول — سبتمبر ١٩٧٧) . (العدد ٧١ تشرين اول — اكتوبر ١٩٧٧) . (العدد ٧٢ تشرين الثاني — نوفمبر ١٩٧٧) . (العدد ٧٣ كانون اول — ديسمبر ١٩٧٧) . مواجهاً مسؤولية قرار مصادرة مجلة شؤون فلسطينية هنا او هناك . وهناك ما لا بد ان يكتب :

— انني اتوجه بالشكر العميق الى الرفاق في الاتحاد السوفياتي الذين يقومون الآن — ممثلين في وكالة نوفوستي — بترجمة هذه الدفاتر الى اللغة الروسية ، فأتاحوا لتجربة ارض صغيرة ان تذهب الى مطبعة الارض الكبيرة والانسان الكبير . وهناك ما لا بد ان يكتب ايضا :

— لقد تصدى الحزب الشيوعي العراقي — حزب يوسف سلمان — رغم كل اعبائه في مرحلة ١٩٥٩ للمؤامرة التي كانت تستهدف تصفيتنا الجسدية في زنازين النجس الحربي . بعد ان غسلت ايديها تماماً من اسمائنا — اجهزة الاعلام المصرية — اذاعة صوت العرب — احمد سعيد .

لقد قام هذا الحزب العزيز بنشر اسمائنا ، والجرائم التي سبقت ورافقت عملية اختطافنا ، وجعل من قضية الحزب الشيوعي في قطاع غزة وقضية الجبهة الوطنية قضية من قضاياها . والآن تقوم — طريق الشعب — بنشر حلقات هذه الدفاتر على صفحاتها .

وللحزب الشيوعي اللبناني . ولجريدة الاخبار التي كان يصدرها في تلك المرحلة ، تحية القلب واليد والدم . فهو الذي طبع صوتنا منشوراً سافر من بيروت الى العالم ، وفتح النوافذ على الكرابيج في ايدي سجانينا ، وتحولت احدى رئاته الى حجرة عمليات سياسية واعلامية لنا . وفي خاتمة هذه الدفاتر :

— اعرف ان صدورها — في هذه المرحلة المكارثية — مرحلة مطاردة الفلسطينيين — اسماً وجسداً وموقفاً سياسياً — وبالذات حينما يكون انتماؤه للجماهير ومستقبلها — سيطلق اظافر كل القوى التي تعتبر ان حائط الزنزانة ، وليس الورقة ، هو الذي يجب ان يكتب عليه الشيوعيون والتقدميون دفاترهم . ولكن الذي ثبت بالتجربة ، ان ايدي الشيوعيين والتقدميين ، كانت تشق دائماً حيطان الزنازين لتمسك بالنسيم القادم ، بأشعة الشمس القادمة من رئة الجماهير .

بيروت — فبراير — شباط — ١٩٧٨

الزفول إلى الماء

علمتني الزنزاة السفر لمسافات بعيدة ، و علمتني أيضاً الكتابة لمسافات بعيدة . فالسجين دائماً يسافر بيده في الماء ويحاول الكتابة بصوته . ثلاثة أشهر لم نر فيها لا جريدة ولا كتاباً . أحد المعتقلين لتخفيف هول العذاب ، طلب القرآن فاحضروا له التوراة ؟ قالوا : ان الزنزاة نجسة ، والقرآن لا يدخل الزنزاة . هكذا فرضوا علينا نحن المعتقلين الفلسطينيين في السجن الحربي آلهة اسرائيل . وهكذا عاد شمشون الاسرائيلي من جديد . لقد تركناه في غزة كومة من الحجارة نوتها قبة صغيرة ما تزال حتى الآن الى جوار المدرسة الوطنية فاعادوه لنا الآن سجاناً في السجن الحربي .

★ ★ ★

على حائط الزنزاة يكتب المسجونون أسماءهم ، يحفرونها بزر قميص او

بمسمار . اول ما يفعله السجين هو ان يكتب اسمه على حائط الزنزانة . انه دائماً يكتب اسمه وتاريخ دخوله السجن والوطن الذي جاء منه . وكبشارة للسجين الذي سيأتي للزنزانة بعده فالسجين دائماً قبل خروجه يكتب تاريخ الافراج عنه كأنه يريد أن يقول لابنه أو لحفيده السجين القادم :

— ما سجن انبنى على سجين .

ولا مستشفى انبنت على مريض ...

★ ★ ★

عليك ان تسافر فباب الزنزانة في السجن الحربي يفتح ثلاث مرات في اليوم . مرة في السادسة صباحاً حينما تمد يدك وتتناول (القروانة) وفوقها الرغيف وبعدها تخرج جردل البول . فمسافة العشرين متراً الى دورة المياه كان ممنوعاً على السجين ان يمشیها . فهم لا يريدون ان تتذكر ابداً انك كنت تمشي ذات يوم . انهم في حرب مستمرة ضد ذاكرة القدم . ويفتح باب الزنزانة في الواحدة بعد الظهر على القروانة نفسها وفوقها الرغيف . الكلب البوليسي (لاي) قد اكل قطعة اللحم في حجم رأس الدجاجة . في الشهر الرابع كان (لاي) يمزق قطعة اللحم فقط ويصقتها الى جوار القروانة . وعليك ان تمد يدك وتتناولها وتاكلها امام السجان . كان (لاي) هدية من (المانيا الغربية) . ضمن برنامج المساعدة الاقتصادية وفي الواقع فقد اكل من اللحم وشرب من المرق اكثر بكثير من الذي قدمته المانيا الغربية لانعاش الفلاحين المصريين . وكما ان الكتابة تجيء في خطوط مستقيمة . هكذا تعلمنا الكتابة . غير ان الزنزانة تعلمك كتابة جديدة . والزنزانة تفتح للمرة الثالثة قبيل الغروب . القروانة نفسها وفوقها الرغيف ويفلق باب الزنزانة بعدها حتى السادسة صباحاً .

★ ★ ★

الجاويش (حسن المشرف) في سجن مصر العمومي والمشراف على المعتقلين الفلسطينيين في الدور الارضي ، كان يقشر الموز امام باب كل زنزانة ويبتلعه اصبعاً بعد آخر وهو يقول :

— هذا موز تعلموا ايها الجواميس .

اما الجواميس فقد كانت اريحا على خريطة وطنهم ، واوراق الموز كانت اقماطهم حينما يولدون . ولكن الجاويش (حسن) لا يعرف الجغرافيا . وبدل أن يعلموه كيف يقرأ ويكتب ، علموه كيف يضرب . هذا التمس الذي وضعوا الكبراج في يده ، كان له ولد في الجامعة في يده قلم . وحينما تم ترحيلنا من سجن مصر

المعمومي الى سجن القناطر الخيرية ، بكى الجاويش حسن وقال :
— لقد أخبرني ولدي أنه يوجد في بلادكم موز .

★ ★ ★

على حائط كل زنزانة يحاول السجين أن يرسم سفينة أو طائرا . فالسفينة في السجن هي دائما هدية السجين القديم للسجين الجديد :
— لن يمكننا من قتل ما دمت تسافر .

انها وصية السجن الخالدة . والسجان (الجوهرى) كان يريد أن يسافر نحو الآخر خارج اسوار السجن الحربى . فالسجان يعتبر نفسه سجيناً ، وهو سجين بالفعل فطول نهاره وليله في السجن . ولأن وصية السجن الخالدة تنطبق عليه : فلقد كان السجان (الجوهرى) يسافر بصوته . في الليل كان يغني لنا ، كان يغني للمعتقلين الفلسطينيين الذين ضربهم وجعل (الكلب لاي) بعضهم . كان (لاي) يعضك في صدرك وفي ظهره : في كتفك وفي فخذك دون أن تسيل قطرة من الدم ، كأنه كان يضع قفازات في أنيابه ، هكذا علموه كيف يعض حتى لا يتمكن السجين من النوم لا على صدره ولا على ظهره .

— انت واقف يا ابن الكلب اتعد .

ويقعد المعتقل الفلسطيني الذي تعود القعود خارج ارضه .

— انت قاعد يا ابن الكلب تف .

ويقف المعتقل الفلسطيني الذي تعود الوقوف خارج ارضه .

هكذا كنا نقعد ونقف طول النهار وجزء كبيراً من الليل . والسفر كان مستمرا ايضاً طول النهار وطول الليل . مرة واحدة في الاسبوع كانوا يقدمون لنا بيضة عند الفطور . فجأة تتذكر انه يمكن أن يخرج من البيضة شيء ما ، فإذا كنت لا تستطيع أن تحطم قشرة الزنزانة وتخرج ، فهناك شيء ما يمكن أن يحطم قشرة البيضة ويخرج . لم أكل البيضة ، وكنت اتصور طول الوقت أن منقاراً صغيراً سيضرب القشرة ذات يوم . ولقد طال انتظارى .

★ ★ ★

في الزنزانة انت لا تريد ديكاً يصبح . ولكنك تريد سفينة تسافر . والسجان (الجوهرى) كان يريد أن يسافر في الليل ، ففي النهار كان عليه أن يضربنا لحساب الآخرين ، وفي الليل كان عليه أن يغني لحسابه الخاص . كان السجان يحب .
— قالوا أنك تكتب الاغاني .

تحس بالفرح . فحينما يتذكر سجانك أن قلما كان ذات يوم في يدك فلعله

ينسى الكبراج ولو لدقائق في يده .
أعطاني أول سيجارة في اليوم الخمسين وقال لي

— اكتب .

— اكتب ماذا ؟؟

— اكتب أغنية لي .

وكتبت أول أغنية مقابل سيجارة . في الاسبوع الثاني حمل السجنان أول رسائلتي ، فلقد أعطاني قلماً وورقة ، وكتبت الرسالة الاولى وأرسلتها معه ، وكانت الى خطيبتني (انتصار) ، وكانت أول مشروع عروس فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي .

هكذا تحول السجنان الى ساعي بريد في السجن الحربي .

★ ★ ★

— ايها الكذابون لا يوجد معتقل فلسطيني واحد في مصر ؟؟

كان الصوت صوت (احمد سعيد) ، وكان يرتفع من اذاعة صوت العرب ، وكنا نسمعه جميعاً في الزنزانة فلقد تمكنا من تهريب راديو ترانزيستور ، كان (احمد سعيد) هو الماركة المفضلة للراديو العربي في ذلك الوقت ، وكان يوجه صوته لهواء ثورة ١٤ تموز في العراق في ذلك الوقت أيضاً .

خليل عويضة المشرف العام على التعليم في مدارس اللاجئين في قطاع غزة والمعتقل أيضاً لانه رفض أن يعترف بحذاء الشرطي سمكة في بحر غزة ، ودافع عن اصبع الطباشر في يد الطفل الفلسطيني ، صاح وهو يصفي الى صوت احمد سعيد :

— انه يكذب . . . يكذب فنحن في السجن الحربي .

في ذلك الوقت كانت المطبعة تكذب وكان الهواء يكذب ايضاً . ورغم ذلك فلقد أنقذنا الهواء القادم من راديو ثورة ١٤ تموز .

تسافر .

يعوم صوتك في الماء .

وانا في السابعة اراد عمي (احمد) ان يعلمني السباحة . كان يملك زورقاً صغيراً ووضعني في الزورق وراح يجدف . وفي وسط البحر امسك بي والقاني في الماء ، وشربت الملح وعرفت للمرة الاولى كيف اقاتل بذراعي وحينما أوشكت على الغرق ، اعادني الى الزورق لكي يلقي بي مرة ثانية الى الماء . وهكذا تعلمت السباحة وانا في السابعة من عمري . كان عمي يعلمني وهو لا يدري كتابة الشعر

وأنا مدين له حتى الآن — بهذه النيران — التي تندلع طول الوقت من بين أصابعي . علمني كيف أقاتل ضد الماء وأنا في السابعة من عمري ، والآن وأنا أقاتل معركة الورد والحب اعرف ما قد فعل بي . انهم يحتقرون الثعالب ولكنهم يشترتون فراءها ، ويكابدون كثيرا في سبيل اصطيادها ، يحتقرون القصائد ولكنهم يشترتون الشعراء .

في العاشرة من عمري اخذتني امي الى العرافة (ام حسن) لكي تطرد الشياطين التي تسكنني . بعد ان وضعت يدها فوق رأسي وحدثت في عيني ، صاحت :
— لا خوف عليه منها فهي شياطين طيبة .

★ ★ ★

صعود الجبل لا يتم في خط مستقيم وكذلك السفر داخل الزنزانة . فحينما نسافر في مركب لأول مرة فعليك ان تتعلم اخطاء الموانئ واططاء الجغرافيا .

كان سيد درويش هو القصيدة التي قاتلت بها وأنا صغير وقاتل بها حتى الآن ضد الاصوات المعلقة عبثا حاول الدكتور — لويس عوض — ان يقتنعني ان (احمد شوقي) كان اعظم من (المتنبي) .

اول من نشر لي قصيدة في مصر كان شاعرا مصرية اسمه : عبد الرحمن الخميسي . واول من دافع عن ديوان شعري الاول كان صحفيا مصرية يكتب الشعر اسمه : كامل الشناوي . كان كامل الشناوي هو اول من قدمني الى توفيق الحكيم عام ١٩٥٢ في مبنى الاهرام القديم .

اخرج كامل الشناوي ديوان « المعركة » من درج مكتبه وقدمه لتوفيق الحكيم وقال :
— اسمع .

وراح يقرأ قصائد ديوان « المعركة » :

— انا ان سقطت فخذ مكاني يا رفيعتي في الكفاح .

كانت القصيدة من (عباس الاصر) أول شهيد لحركة انصار السلام المصرية في قننة السويس عام ١٩٥١ . في مطبعة (أورفند) تم طبع ديوان المعركة قبل حريق بالقاهرة بيوم واحد ، كان كل شيء يحترق وخرج الديوان يسجل رفضه للدخان .

لقد رسمته مجموعة من الرسامين المصريين : حسن التلمساني ، حامد ندا ، فريد كامل ، صلاح جاهين . وصدر الديوان عن — دار الفن الحديث — التي كان يشرف عليها : ابراهيم عبد الحليم .

بعد ان قرا توميق الحكيم الديوان ، طلب توقيمي عليه ، كان يتصور انني
احمل مسدسا ولكنني كنت لا املك قلما .
كنت طالبا في الجامعة الاميركية في القاهرة حينما ظهر ديوان « المعركة »
وكتبت عنه — بنت الشاطيء — مقالة في جريدة الاهرام — لا ادري كيف — من
جريدة الاهرام شقت تصائد الديوان طريقها الى مجلة « الرسالة » . وحينما
اغراني عبد الرحمن الخميسي بالذهاب الى مجلة « الرسالة » لقبض المكافاة ،
اصر احمد حسن الزيات على أن يرى الشاعر الذي كتب هذه القصائد . كان يظن
انني جئت اليه دكتورا من السوريين ، فاذا بي ذلك الطالب في الجامعة الاميركية .
ليرحم الله كثيرا الدكتور زكي مبارك — من يذكره الآن في مصر — ؟ كان
يخلط المعرق بالكوكاكولا في بار التوفيقية ويصيح :
— لن يهلك الشاعر ما دامت الدموع في عينيه .
كنت ابكي كثيرا كلما ذبحوا دجاجة في بيتنا وكنت اصرخ :
— لن ترتكب غلطة اخرى .

المؤذن (خليل) كان يصعد بي الى المذبة وانا في الثامنة من عمري ، لأول
مرة ارتفع فيها عن الارض . يائيل دايان الكاتبة الاسرائيلية وابنة الجنرال
(موسى دايان) تعتقد ان الارتشاع عن الارض لا يتم الا بواسطة قاذفة قنابل .
في بيت جدي لأبي كانت صورة جدي تحتل صدر الدار ، وكنت اظن طول
الوقت انه هو الله . وعرفت فيما بعد ان الله لم يصوره احد بعد ، فصورته
منوعة من التداول : الذي صوروه كان دائما شخصا معلقا فوق حائط . كنت
احس دائما انه يريد ان يضع قدميه على الارض ويمشي ، لقد تعب من التعليق
فوق الحيطان وفوق الاعمدة ، وبدل الشمعدان كنت احس انه يريد حذاء .
لقد بدا الفلسطيني يعرف ان الله الذي رسموه فوق الحائط لا يريد شمعدانا
ولكنه يريد حذاء .

★ ★ ★

المطر هو اعظم اسديقائي ، وحينما كان يسقط المطر كان يتسرب الى قفل
الزنزانة ويفتحها فتخرج . والسفينة دائما تقف امام باب الزنزانة في انتظارك .
تسافر الآن في القمح .
حينما تخلط لونين يخرج لون ثالث . فماذا كان يحدث حينما كان السجنان
يخلط بكرباجه بمائة رخة لمستقل . . .
العذاب دائما يأتي من خارج الزنزانة ، فحينما يبدؤون في تعذيب جارك في

الزنزانة المجاورة . يبدأ العذاب بالنسبة لك ، انك تنتظر دورك وهم يعرفون كيف يطيلون عذابك في الانتظار ، فقد لا يأتي دورك في هذه الليلة ولكن السنة النيران قد بدأت تشتعل في عظمك . كل صرخة تأتي اليك من خارج الزنزانة لسان نار . دخان النيران يتسرب من جسد جارك المعتقل . انهم يذبحونه بالنار ويخفونك بالدخان .

الدخان يتسرب الى الزنزانة ابراً ومسامير . انهم يدقون الدخان ابراً ومسامير في عظامك . لقد ادخلوك في التجربة ويجب ان تتذكر شيئاً ما لكي تتمكن من المقاومة . تدخل كل الاصوات الى زنزانتك مختلطة كأنها صراخ البط البري حينها يستط في الشوك .

— محمد مهدي الجواهري ، لماذا يحوم كل هذا الذباب الازرق فوق اصابع يديه الآن ؟ لقد دخل مصر بدعوة شخصية من الدكتور طه حسين حينما كان وزيراً للمعارف في عهد الوفد المصري . الدخان يتحول الى ذباب . صدقي باثناً يدخل البرلمان المصري وفي يده ديوان — اصرار — للشاعر المصري كمال عبد الحليم . وهو يصرخ :

— الشيوعيون في شوارع القاهرة ؟

في ذلك الوقت كانت القصائد في شوارع القاهرة .

كانت أمي تخبئ قطعة كبيرة من اللحم لفؤاد نصار . عندما كان يأتي في منتصف الليل .

— انه يتعب كثيراً .

ولقد كان فؤاد نصار يتعب كثيراً . كان اول من وضعني امام الميكروفون في اول اجتماع جماهيري لعصبة التحرر الوطني في سينما السامر في غزة وعرفني على اميل توما واميل حبيبي وقال لي :

— تكلم .

كانت المرة الاولى التي ارى فيها الشاعر عبد الرحيم محمود ، وجهه كان يشبه التفاحة . كان فلاحاً فلسطينياً يكتب بالحراث . هذا المحراث الفلسطيني ترك لنا جسده لكي نلقي نيه ببعض البذور . ومن الشبابيك المفتوحة دائماً في يد عبد الرحيم محمود تعرفت على شاعر العصر الفلسطيني عام ١٩٤٦ :

— أبو سلمى .

— ان امك تموت .

القي بالدفاتر واركض الى البيت ، كانت أمي ممددة فوق السرير والى جوارها كان ابي وعمي احمد وعمي عاصم وخالاتي الاربع والطبيب والتصقت

بها ورفضت ان اترك الفراش . كانت في حاجة الى شيء ما وكنت احس ان في استطاعتي ان اقدم لها هذا الشيء .

★ ★ ★

في الثامنة من عمري تبعت — ثلجة وعبد الرحيم — كانا غجريين يمشيان على الحبل . ولقد ارضعتني تلك الفجرية . كانت ترضع طفلها وكنت عطشان فلاحظت عيني فارضعتني . من يومها علمتني وهي لا تدري كيف امشي فوق حبل من النار .

في الصباح حدثت المعجزة وعاشت امي . كان عليها ان تقاوم من اجل شيء ما فتقاومت من اجلي وعاشت .

★ ★ ★

السجان يسمح كفه في حائط زنزانتني : كان على اصابعه دم — فريد ابو وردة — .

حمزة البسبوني قائد السجن البحري ياتي الآن . ياتي في اللحظة المناسبة ، فالصراخ ياتي من الخارج وهو يصرخ من الداخل :
— اكتب فقط انك لست شيوعيا .

انهم يعطونك القلم الآن . اولئك الذين كسروا اصابعك . يعطونك الورقة الآن اولئك الذين جردوك من ثيابك . اولئك الذين لا يعترفون الا بانياب الكلاب البوليسية اقلاماً لهم . كانوا يريدون منك ان تكتب . تتذكر عيني امك . بحر غزة الذي تعلمت فيه السباحة وانت في السابعة من عمرك . انك ترى بوضوح وجه — فخري مرقة — . كان يعمل جاویشاً في مركز بوليس المجدل فوضع كل بنادق مركب بوليس في صندوق سيارة وهرب وانضم الى فصائل — الشيخ حسن سلامة — .

وانا سبي زرت فخري مرقة في سجن عكا ، كان محكوما عليه بالاعدام ثم حكموا عليه بالسجن المؤبد وهرب من السجن وجاء الى غزة عام ١٩٥٧ واحببته كثيرا وكان دائما يقول لي :

— الاغنياء لهم الله والبوليس ...

والفقراء لهم النجوم والشعراء .

— اذا كنت لا تريد ان تكتب فتكلم . قل فقط انك لست شيوعياً وسوف تخرج .

ولكن كل العالم كان سيسمعني لو قلت هذه الكلمات .

مخلص عمرو كان رئيس تحرير مجلة « الغد » وكانت صوت رابططة

المثقفين العرب .

عاش اجمل ايامه شيوعياً ، وحينما كان شيوعياً علمني الكثير
حمزة البسيوني يدق صوته كالمسمار في اصابعي ويصيح :

— قل انك لست شيوعياً وستخرج .

الزنازة تمتلئ الآن بالوجوه . انك لست وحدك . انهم يريدون ان يكسروا
صوتك لكي يكسروا عظمك . ويخرج حمزة البسيوني يتبعه الكلب لامي والكلبة
غولدا . لقد اطلقوا عليها اسماً اسرائيلياً ، اما انيابها فقد كانت انياباً عربية
اصيلة مسنونة من المحيط الى الخليج .

— قل انك لست شيوعياً وستخرج .

تتذكر الجريدة التي لفوا بها الباذنجان والفلافل ، ومن هول العطش
لقراءة اي شيء مكتوب ، تقرا الجريدة الملطخة بالزيت ، وتستطيع ان ترى صورة
الشاعر السوري شوقي بغدادي والقصيدة التي كتبها واخرجته من السجن :

— قد كنت ابناً ضال

يا عصبة الاووال

وخالد الدجال ...

المطر يسقط والدخان الذي كان يتسرب من اصوات المعتقلين ومن عظامهم
تد اخذ يتلاشى في الماء .

وتبدأ السفينة تنزل الى الماء . بذرة الخشب التي هي نطفة الشجرة تلتحق
الماء الآن ويتمدد البرق كالجسد فوق سطح البحر والمعتقل الذي لا يملك منديلاً
يصنع صوته اشرعة تكفي لكي تصنع قميصاً لكل البحار ، يصبح الآن هو القبطان
الذي اخذ يستقر فوق الماء .

— الشعراء عينهم على القمر ويدهم على الرغيف وفمهم مع السفينة .

وينزل الفم الى الماء ، تنزل السفينة ويبدأ السجين يسافر . يبدأ المطر
يسقط . الجراد الذي لا يستطيع ان يقضم الماء يحلم بالسهمك .

— لقد نزل الفم الى البحر واصبح سفينة .

الدَفْتر الأول

ولدت في بيت جدي لابي في حي السجاية في غزة . كان جدي من اجل مهافته يفرض على اولاده الثلاثة ان يسكنوا معه . يتباهى بانه ارسل ابنائه الثلاثة الى جامعة استانبول . اما حينما كان يغضب على عمي الاكبر عاصم ، فقد كان يصرخ :

— ارسلتك الى استانبول لتعود بشهادة فعدت بحبل مشنقة .
عمي عاصم اول ما وصل استانبول اشترك في اصدار مجلة المنتدى العربي . كان الطلاب العرب يتعلمون لغة السلطان التركي لكي يتأمرؤا باللغة العربية ضد الاتراك .

والقي القبض على عمي عاصم وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالاعدام .
يفلت عمي من حبل المشنقة بمعجزة . من يومها احبته . — فيما بعد — حينما كان الحاكم الاداري العام لقطاع غزة — اللواء عبد الله رقعت — يستدعيه لمكتبه لكي ينذره بانه سيعتقلني اذا لم اكف عن نشاطي ، كان يعود الى البيت ويصرخ :
— انك تحطمننا .

كانت زوجته — اخت أمي — تقف دائماً الى جانبي وتصرخ :
 — لم يحكموا عليه بالاعدام مثلما حكموا عليك .
 دائماً حينما كان يسمع هذه الجملة كانت عيناه تلمعان ويهمس في أذني :
 — الشيوعية شيء خطر .
 وبالفعل كانت الشيوعية تشكل خطراً دائماً وستبقى بالنسبة الى كل
 أولئك الذين كانوا وما زالوا يحاولون ان يفتحوا بيت فلسطين بالمفتاح الوحيد
 الذي يملكونه :
 — الكبراج .

★ ★ ★

في رمضان كانوا يحضرون شاعراً لكي يغني لهم سيرة (أبو زيد الهلالي)
 كنت أجلس تحت النافذة وأصغي للشاعر حتى خيوط الفجر الأولى . وما أكثر
 ما كانت أمي تجدني ممدداً تحت النافذة . من يومها أحببت الشاعر وأحببت
 ربابته . بعدها كنت أهرب الى المقهى وأنا في الثالثة عشرة من عمري لأستمع الى
 الشعراء الجوالين . هذه المخلوقات العجيبة التي كانت تتقمص شخصيات السلاطين
 والجن والابطال . في آخر الليل كانت الكراسي ترتفع والزجاجات تتطاير . لأن
 (أبو زيد) سجين وأنصاره في المقهى لن ينركوه سجيناً ويمضون الى بيوتهم . وما
 أكثر ما أرغموا الشاعر بربابته على اطلاق سراح (أبو زيد) .
 من يومها أحببت الشعراء الجوالين الذين كانوا يعتقلون الجن والملوك
 والابطال ويطلقون سراحهم ايضاً .
 كان أبي يأخذني معه دائماً في موسم الحصاد وفوق كومة من سنابل القمح
 كان يضع فروة خروف ويغطيني بفروة أخرى وهكذا كنت انام وتحت رأسي
 سنبلة وفوق رأسي نجمة .
 في أيام الحصاد كان والدي يدعو أصدقاءه ، يذبح خروفاً لهم ويأكلون
 ويشربون ويفنون حتى الفجر .
 كل أصدقاء أبي كانوا من الصيادين وكان يحبهم كثيراً . وهو أول من وضع
 البندقية في يدي وأنا في الخامسة عشرة من عمري وعلمني كيف أضغط على
 الزناد . واصطدت حجراً وهرب الطائر . ولماذا يقتل الشعراء الطيور ؟ على
 الشعراء ان يقتلوا الاسمنت .
 كان أبي دائماً يقول لي وأنا أمضي أوزع الطيور التي اصطادها على الجيران :
 — كيس الصياد ليس له ، انه يصطاد لجميع الناس .

في وادي (الشريعة) قناة صغيرة من الماء تفصل غزة عن بئر السبع . كان يأخذني أبي معه الى الصيد وعلمني كيف أحب الماء الذي تخرج منه الطيور .

★ ★ ★

في نادي غزة الرياضي كانت بداية علاقتي بعصبة التحرر الوطني : محمد خاص ، علي عاشور ، فتحي شراب : فهمي السلفيتي .
أما فتحي شراب فقد أصبح يحمل الجنسية البريطانية فيما بعد ، وعصبة التحرر الوطني التي أرسلته الى — براغ — عام ١٩٤٩ لكي يدرس فلقد عاد يهاجم عمال براغ الذين قدموا له الرغبة والكتاب .
فهمي السلفيتي كان مسؤولاً عن العمال الفلسطينيين في المعسكرات البريطانية في لواء غزة ، رغم انه كان يركب دراجة ويتكلم كثيراً عن العمال ، كانت قدماء تكذبان بالنسبة لي ، وحينما تكذب القدمان تكذب اليدين ويتحول العم الى لص .

علي عاشور عضو اللجنة المركزية لحزب (راحا) الآن ، كان اول مسؤول لي في منطقة الرمال في غزة . اعتقله المصريون ثم جاء الاسرائيليون واخذوه معهم في احدى غاراتهم واصبح في حيفا .
فائق وراد المدرس في كلية غزة كان يشبه دائماً قطرة الماء . وحينما يتحول الفلاح الى مدرس تتحول الاشجار كلها الى اصابع طباشير .
حينما أصبح عبد العزيز العطى عضواً في عصبة التحرر الوطني كانت فرحتي الكبرى . كان ابن فلاح يمتلك بضعة أمطار من الارض وحينما أصبح شيوخياً أصبح يمتلك الكرة الأرضية .
فؤاد نصار كان يأتي كل اسبوع الى غزة ، وفي مقر جمعية العمال العرب كنا نجتمع اليه على كرسي القش الصغيرة . كان يقول لنا دائماً :
— العمال هم الوطن .

وحينما كان فؤاد نصار يتكلم عن العمال الذين هم الوطن . كان يعلمنا ان قيامة الارض تقوم حينما يقوم الفلاح . وبدأت رحلة عصبة التحرر الوطني في فلسطين من أجل قيامة الارض .

كان فؤاد نصار اول من قدم لي — ابو ذر الففاري — وقدم لي بعده — عبد الله بن علي — صاحب ثورة الزنج وعلمني كيف أحب — ابو سلمى — شاعر ثورة ١٩٣٦ وشاعر الحركة الوطنية الفلسطينية . ورغم مشاكل العمال الذين هم الوطن ، ورغم مشاكل الفلاحين الذين هم القيامة كان يجد متسعاً من

الوقت ليكلمني عن المتنبى . ابدأ كان يرتبط بالشعر ، وحينما أرسلت مرة قصيدة لجريدة الاتحاد وكان فؤاد نصار يشرف عليها في ذلك الوقت ، نشرها المحرر الادبي في بريد القراء ، وهرعت لفؤاد نصار والجريدة في يدي ، والقيت الجريدة فوق الطاولة وأنا أصيح :

— انظر ماذا فعلوا بي ؟؟

بعد ذلك بعامين في العشرين من ايار ١٩٤٨ كانت عصبة التحرر الوطني بقرار من فؤاد نصار توزع قصيدتي بصورة سرية :

أحد يمر كذبت لا

أحد يمر فلا حدود

أنا لن أبذل حبل مشنقتي

ولا زرد الحديد

لكه مر الرصاص

وخلفه مر الجنود

طردوا عن الارض التي

ولدوا عليها يعرقتون

وسيعرقتون وهم بأرضك

يقتلون ويقتلون

أو حينما يتساءلون

متى تراهم يرجعون ؟

عصبوا عيونهم فما لحوا

القتال ولا الوحوش

كم دنشواي على مخالبتهم

ممزقة تعيش

وحفرت صوتك خندقا

سدوا الطريق على الجيوش

فلاحنا اشحذتها

هذي الشراشر الحصاد

قد اقبلوا واستبشر الملاك

خيرا بالجراد

وسيفبحونك بالشر اشر

فوق اكوام الحصاد

كذابة هذي المدافع
لا تصدق ما تقول
لم تحتنى بالزيتون او بالبرتقال
او النخيل
بل بالمشائيق والسلاسل
بالسياط وبالسيول
انا لست اقرا كفك العطشى
لاعرف ما المصير
بصمات الاستعمار فوق وجوههم
وعلى الظهور ...
وعلى بنادقهم عرفت بها
الخيانة والمصير
اسدود خندقه الاخير
وليس خندقه الاخير
قد باع غزة قبل اسدود
الاجير الى الاجير
ان عشت تبصرهم وقد حملوا
الرؤوس على الظهور
وانا وانت وكيف أجرؤ :
ان اتول
لولاهم لفرشت بيتك
بالزنايق يا نهيل
ولشب توفيق الصغير
ومع ريموندا ومع راحيل .

★ ★ ★

في اكتوبر ١٩٤٨ ذهبت الى قسم الآداب في الجامعة الاميركية في القاهرة
والقاهرة في ذلك الوقت كانت بالنسبة لي هي عبد الرحمن الخميسي الذي
كلمة السر الشعرية الى روح مصر . ومجلة « الرسالة » التي كان نشر قصه
واحدة فيها يجعل لك اسماً في الشعر .
وحينما وصلت القاهرة كان عبد الرحمن الخميسي مشغولاً بكتابة —

ليلة وليلة الجديدة — . وبعد ذلك شغلته القصص عن الفدائيين المصريين في قنّاة السويس .

دات مرة اعطيته قصيدة لنشرها في جريدة المصري ، ولسوء حظ القصيدة غضب مني لأنني قلت له انني افضل الف ليلة وليلة القديمة .

في الصباح وفي الصفحة الادبية التي كان يشرف عليها الخميسي ظهر اعلان عن احذية « باتا » ، وقد حل مكان القصيدة . ولكنني في مصر تعرفت على الكاتب المصري ابراهيم عبد الحليم وعلى اخيه الشاعر كمال عبد الحليم وعلى صلاح حافظ ، وعلى الرسامين زهدي ، وحسن فؤاد ، وحامد عبد الله ، وحسن التلمساني ، وأحمد طوغان ، وعلى فؤاد حداد ، وكامل زهيري ، ولطفي الخولي ، وعلى نائب البرلمان الشاعر عزيز فهمي الذي كان صوته المبح الاصوات التي ارتفعت ضد مشروع تقييد حرية الصحافة والذي كان فؤاد سراج الدين باشا يريد تقديمه خلال النائب اسطفان باسيلي .

وجدت نفسي في جريدة « الملايين » الاسبوعية ، كان رئيس التحرير أحمد صادق عزام وكانت « الملايين » صوت الحركة الديمقراطية للتحرك الوطني .

اول من قدم لي الشعارين الفرنسيين — اراغون ، وايلوار — كان الشاعر فؤاد حداد . وحسن فؤاد وزهدي الرسامان المصريان قدما لي بيكاسو . وصلاح جاهين قدم لي فونتمارا والخبز والنبذ لاغنازيو سالوني . هؤلاء الذين قدموا لي كل هذا الشعر وكل هذا اللون قدموني لمصر . ولولا عمال مطبعة أورفند الذين دافعوا عن مطبعتهم في وجه المحرقة لما ظهر ديواني الاول « المعركة » .

وانا ساظل مدينا لعمال المطابع في مصر الى الابد . ودائما كنت اقول للرقاق:

— كان عمال مطبعة أورفند يدافعون عن قصائدي .

وسواء كان يدافع عمال المطبعة عن قصائدي ضد حريق ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، او عن مطبعتهم ، فالعمال كما كان يقول فؤاد نصار :

— هم الوطن .

وانا اضيف :

— والوطن هو الشعر .

بعد حريق القاهرة أخذ الدخان شكل الحجارة ، وبدأت غارات البوليس . كنت في السنة الدراسية الاخيرة في الجامعة الامريكية في القاهرة ، ولقد بدا البوليس يبحث عني . لم يكن يتصور ان شاعر ديوان المعركة هو طالب في الجامعة الامريكية ، وهو الذي يردد شعره كل ليلة في مكتبه في جريدة الاهرام : كامل الشناوي . وهو الذي يجوع الآن في حجرة فوق مقهى « ايزانيتش » وهو

الذي يصعد صوته من كفه :
 لمن الشارع من يملكه ،
 نحن ام من يملك الجيش الكبير ،
 طردت منه الجماهير التي
 زرعت من قلبها فيه القصور . .
 لم تعد تدوي به صيحاتها
 وهي في ثورتها الكبرى تسير
 حاكموها
 عاتبوا كل فم ،
 صارخ في وجه حفار القبور
 هذه ارضي ولن ازرعها
 جثثاً ،
 بل سنبلات وزهور

●
 لمن الشارع لا صوت به
 يا رفيقي غير اشباح الجنود
 غير — قف من انت تدوي — كلما
 ملا الشارع ظل لشهيد
 غير ان الشارع الدامي لنا
 رغم ما صفوا عليه من جنود . . .

★ ★ ★

عشت على البطاطا المسلوقة لمدة اسبوع ، صلاح جاهين اغراني بطلب
 مقابلة الحاج امين الحسيني ، كان يقول لي :
 — سوف يساعدنا .
 لقد أصبح المطارد صلاح جاهين فلسطينيا هو الآخر .
 — تخلى صلاح جاهين الآن عن مصر الفلسطينية وعن فلسطين المصرية —
 واشترى الحاج امين مائة نسخة من ديوان المعركة .
 وهكذا في اول عشاء مع صلاح جاهين صرخ :
 — لقد اكلنا عشر نسخ من الديوان .
 وتبدد ثمن المائة نسخة من ديوان المعركة على مائدة في مقهى شهريار في

الجيزة حيث كان يجلس : زكريا الحجاوي ، وبكر الشرقاوي ، وعبد الرحمن الخميسي ، والرسام أحمد طوغان .

★ ★ ★

حينما كنا نجوع كنا نذهب الى الشاعر المصري محمد علي ماهر ، كان يعمل باسكتاباً في مستشفى الاطفال . كان محمد علي ماهر يجمع كل كبد الدجاج ، يقلبه في السمن ويقدمه لي ولعبد الرحمن الخميسي ولعبد المنعم عبد العزيز . بعد الشبع ، كان عبد المنعم عبد العزيز يصيح في وجه محمد علي ماهر — يا سارق اكباد الاطفال ؟

كان الرفاق من الشيوعيين المصريين يحاولون الاتصال بي طيلة عام ، وحينما عثروا على تناقشنا حول قضية واحدة وكانت القضية تدور حول مستقبل اول لجنة لانصار السلم تؤلف في مدينة غزة . وحملت الرسالة الصعبة الى غزة . في النادي القومي في غزة تم اول لقاء بالفاضل الشيوعي : فايز الوحيددي . لجنة السلام الفلسطينية في ذلك الوقت كانت سيئة الحظ ، ملقت تم اللقاء القبض على الخلية الشيوعية الرئيسية في غزة : عصبة التحرر الوطني .

الضابط نخري بسيسو — جاء ليقول لي — :

— كن حذراً هذه الليلة .

ومضيت لكي أحذر رفيقين من عصبة التحرر الوطني : محمد خالد البطراوي وعوني سيسالم ، قابلت الاول فوق قضبان سكة الحديد ، وكان يعمل محاسباً في شركة تجارية ، وقابلت الثاني في المقبرة . وهرب الاثنان . كان علي ان اعمل شيئاً ما فأصبحت مدرساً في مدرسة الحكومة في السجاية . امام تلك المدرسة بيارة جدي لأبي . كنت أحس أنهم ينشرون لحمي كلما كانوا يقطعون اشجار الزيتون لكي يزرعوا بدلا منها شتلات البرتقال . أصبحت مدرساً للغة الانكليزية ، وكان مدرس اللغة العربية يحاول أن يجامل المدرسين المصريين ويقول لهم :

— أحمد شوقي شاعر كل العصور .

وحينما شتم ذلك المدرس المتنبئ ذات يوم بصفت في وجهه ، وقدم تقريراً ضدي الى أحمد اسماعيل ، وكان المشرف في ذلك الوقت على التربية والتعليم في قطاع غزة .

— ما دام يصفق على أحمد شوقي فلا بد أن يكون شيوعياً .

هكذا قالوا . ولكنني كنت اذانع عن الشعر .
لم يعد لي خبز في تلك المدرسة التي كانت حولها طفولتي ، تجري مرة
كجدول ، ومرة أخرى تأخذ شكل الرغيف ، ومرة ثالثة تأخذ شكل نواة المشمش
التي كنا نجفئها ونلعب بها .

★ ★ ★

سافرت الى بغداد وكان في جيبتي عقد مدرس . اول ليلة سهرت فيها في
بغداد كانت مع ناظم حكمت . وبالدينار الوحيد الذي كان معي اشتريت زجاجة
نبيذ وتماحاً وديوان شعر ناظم حكمت . في الصباح سافر معي ناظم حكمت الى
الديوانية ومنها الى قرية الشامية ، ولقد ظل يسافر معي .
اكثر من يحترم المدرسين هم الفلاحون . كانت المشكلة اين اقيم ، وناظر
المدرسة لم يكن يعرف ماذا سوف يفعل بي .
تطوع أحد المدرسين العراقيين واستضافني تلك الليلة . وحمل البواب
حقيبتى الوحيدة .
دعاني ناظر المدرسة لتناول العشاء معه وبعد العشاء قادني الى البيت
الذي قبلني كضيف فيه .
حينما فتحت الحقيبة وجدت ان شيئاً ما قد حدث ونظرت الى المدرسين
الثلاثة فكانوا يتسمون .
لقد تم تفتيش الحقيبة . « عباس العادلي » يتقدم مني فاتحاً ذراعيه وهو
يلوح بديوان المعركة :
— اهلا بك في العراق .

كان ديوان المعركة الذي حملته معي من غزة الى بغداد هو أوراق اعتمادى
كفلسطيني الى الشيوعيين العراقيين . لم يرتبط حزب شيوعي بالشعر مثلاً
ارتبط الحزب الشيوعي العراقي . لقد كان الحزب رثة من الشعر .
في مدرسة الشامية كنت ادرس اللغة الانكليزية . يطحنون سعف النخل
ويعجنونه ويصنعون منه اقراصاً يجففونها تحت الشمس ويأكلونها . هؤلاء
كانوا تلاميذي .

لبعضهم كنت اعطي دروساً مجانية خاصة ، وحينما ارسل أحد
الاطاعيين ، « الشيخ رابع عطية » أحد رجاله ليضربني ، كان اباً لتلميذ كنت
اعلمه بالمجان .
وسقطت الهراوة من يد الاب . كان عامل مضخة للمياه ، وكان اول من

قدمت للحزب الشيوعي العراقي . في ذلك الوقت من بداية عام ١٩٥٣ كان الحزب يقاتل ضد الانقسام وضد نوري السعيد ، من أجل وطن حر وشعب سعيد . واتصل بي الحزب بعد ثلاثة أشهر من وجودي في الشامية . ولقد تعلمت الكثير من اليد السرية لذلك الحزب.

★ ★ ★

كنا نحن المدرسين الاربعة كل مدرسة الشامية الثانوية للبنين والبنات . كانت مدرسة مختلطة وفي قرية في العراق عام ١٩٥٣ . كنت أدرس اللغة الانكليزية وعباس العادلي يدرس الرياضيات وكاظم الشمري يدرس اللغة العربية ومدرس رابع نسبت اسمه كان يدرس الجغرافيا والتاريخ .

وبدأت الايام تمشي في قرية الشامية ، كنا نقدم الدروس المجانية للطلاب وفي المساء كنا نقوم بتصحيح الدفاتر وتحضير الدروس لليوم القادم ، ثم تمتد المناقشة حول ما حدث في فلسطين وحول ما يحدث الآن في العراق . حادث لن انساه في حياتي فحينما بدأت مؤامرة نوري السعيد بطرد اليهود من العراق ، كان من بين اليهود المطرودين شيوعية يهودية عراقية رفضت ركوب الطائرة ف ضربها عسكر نوري السعيد حتى سقطت فوق سلم الطائرة وجروها فوق وجهها الى داخل الطائرة وهي تصرخ :

— هذا وطني .

ومثلها الطائرة تمثليء حوصلته بالقمح ، يمثليء صدرك بنسيم الاساطير القادمة من يد الحزب .

مرة قرانا تصيدة الجواهري في مديح ولي المهدي وكانت صدمة كبيرة بالنسبة لنا نحن الذين قرانا الجواهري ، فقررنا في خلية الشامية وبالإجماع : حرق محمد مهدي الجواهري .

كومنا دواوينه واشعلنا فيها النار ، وفي التقرير الشهري للحزب كان أول ما كتبه هو قرار اشعال النيران في قصائد الجواهري . وجاء رد الحزب في صورة منشور خاص بالجواهري كان عنوانه « محمد مهدي الجواهري شاعر العرب الاكبر » .

هكذا علمني الحزب كيف استخدم النيران وبشكل آخر .

★ ★ ★

في ذلك البيت في الشامية كان كل واحد منا يتولى مالية البيت لمدة شهر . في الشهر الذي اصبحت فيه مسؤولا عن البيت كنت أعود ومعني سبعة او عشرة

طلاب ، وهكذا افلسنا في منتصف الشهر . لم نكن نعرف في ذلك الوقت لا بقلا ولا بائع طيور .

وهكذا جلسنا بعد الظهر ننظر لبعضنا البعض ، وفجأة التمعت عينا عباس العادلي . كان ينظر الى الحمام في ساحة البيت . وبدأنا العمل فوراً كأننا كنا نفكر في موضوع واحد . كل منا انتفض على خامة ولقد هوجىء الحمام ، فلقد كان طول الوقت يمشي بيننا . منذ ذلك الوقت عشنا على أكل الحمام . وربما كنا أول من أكل الحمام في قرية الشامية . بعد ذلك أصبحت عملية اصطياد الحمام عملية صعبة جداً فلم يعد يهبط من أعشاشه على سطح بيتنا وينزل الى صحن الدار . كان علينا أن نستخدم السلم لاصطياده في أعشاشه ، ووضعنا السلم فوق الجدار وكان مخلصاً ، سعد عليه عباس العادلي بعد حوار طويل ، مد عباس يده الى عش حمامة ولكنها زافت من يده وطارت وهي تخط وجهه بجناحيها وتبعها الحمام واختل توازن عباس فوق السلم فسقط . وفي الصباح رآه الطلاب وهو يعرج وراوا الكدمات على وجهه ، ولم يعرفوا أن مدرس الرياضيات سقط من علو ثلاثة أمتار وهو يصطاد حمامة .

★ ★ ★

بدأت منشورات الحزب وكراساته تظهر في قرية الشامية . كل شهر كانت تأتي البوسطة وكنت قد اتمت سقفاً سرياً ثانياً تحت سقف حجرتي لأخفي المطبوعات . ومع ظهور مطبوعات الحزب بدأ البوليس السري في الظهور ، ولكننا كنا بالنسبة لاهل القرية أربعة من المدرسين المحترمين الذين يقدمون الدروس المجانية للطلاب ويسهرون يصححون الدفاتر .

★ ★ ★

« فريد ناجي » — حتى النار لا يمكن أن تمحو اسمه من يدي — كان أمة طلابي وكان مصاباً بروماتيزم في القلب . استعار مني رواية « الام » لجوركي ومات ولم يتم قراءة الرواية . وضع سعفة نخل في منتصف رواية الام وبعدها توقف قلبه عن الخفقان . وحملناه فوق سيارة وذهبنا لندفنه في مقبرة النجف . لقد رأيتهم وهم يغسلونه ولكنهم لم يستطيعوا أن يغسلوا اسم جوركي فوق جلده . أردت أن ادفن معه كتاب الام ولكنهم رفضوا . ربما خافوا أن يقوم كتاب بعمل انقلاب وهو تحت التراب .

الخلية الاولى أعطت الخلية الثانية ولكن الامتحانات النهائية قد جاءت وكانت اهم الاحداث في المدرسة .

بدا خبر المناشير يفوح في شوارع الشاميه وبدأت الرقابة البوليسية تشدد .
 كان علي أن أفعل شيئاً ما كي أفلت من المصيدة . وجاء مندوب من الحزب وطلب
 مني السفر معه نوراً الى بغداد . وسافرنا في الليل الى النجف ومنها الى بغداد .
 في بغداد كان قرار الحزب أن اغادر العراق ، لقد انتهت السنة الدراسية
 ووزارة المعارف لن تجدد عقدي ، ثم علي أن أحمل رسالة معي الى الخارج .
 وكانت رسالة الحزب حقيية من الخشب امتلاً بطنها بمطبوعات الحزب .
 ولا أزال أذكر انني اضرت على حمل الحقيية الخشبية :
 — اذا قبضوا علي فلا يهم ، اما انت فمهم يحتاجون لك كثيراً .
 وسلمني الرفيق الحقيية ومضيت بها الى فندق الرشيد .
 كانت هدية الحزب الشيوعي العراقي الى الشيوعيين المصريين والشيوعيين
 الفلسطينيين في قطاع غزة ، وكانت من اجل الهدايا التي حملتها في حياتي ، وأنا
 مدين بوصول هذه الهدية الى مصر وقطاع غزة الى مدرس فلسطيني من غزة كان
 يعمل في العراق اسمه كمال الطويل . حينما وصلت الى مطار القاهرة عرفت
 انني في القائمة السوداء وانطلق ذلك المدرس الى حقيية الخشب ولقد أخبرته
 بمحتوياتها حتى يتخذ قراره . ولم يتردد . ضم الحقيية الخشبية الى حقائبه
 وانطلق بها خارج المطار . ولقد قام بالفعل بتسليمها الى الرفيق (خ . ش) الذي
 طلبت منه تقديم الحقيية اليه . وهكذا نمت تلك الليلة في فندق مطار القاهرة
 الدولي وفي الصباح تم ترحيلي بالقطار الى غزة .
 حينما بلغ القطار محطة رفح الفلسطينية : كنت أحس بمجالات القطار وهي
 تكتب فوق التضبان منشوراً جديداً للارض .

الدَفْترُ المَشَانِي

وصلت الى غزة في صيف ١٩٥٣ . والمناضلون الشيوعيون الذين حوكموا .
كان من المقرر أن يحكم على بعضهم بالسجن المؤبد ، لولا الضابط المصري الوطني
لطفي واكد الذي اعتبر في حيثيات الحكم أن عصابة التحرر الوطني في قطاع غزة ،
منظمة وطنية وأنه يحكم على مسؤوليها الأول بخمس سنين وعلى بعض أعضائها
بأربع سنوات وستين وعلى البعض الآخر ببضعة أشهر ، لأنهم لم يتقدموا
بترخيص لطباعة وتوزيع النشرات — هؤلاء المناضلون الفلسطينيون كانوا جميعاً
خارج أرضهم في سجون مصر . وعقوبة الفلسطيني الدائمة كانت وما تزال النفي
خارج أرضه ، أن يخرج الفلسطيني من جسده .
وغزة التي لوت ذات يوم قرني « شمشون » وأرغمت هذا الثور الامي
الصهيوني الذي كان في عضلاته أول بذور الصهيونية ، أرغمت هذا — القوة
الهمجية — الذي كان يربط قصاصات النيران في ذيول بنات آوى ويطلقها في زمن
الحصاد ، لتحرق قمح أجدادنا الفلسطينيين القدامى .
غزة أرغمت هذا الشمشون على أن يفعل رغم ارادته شيئاً مفيداً ، أن

يجر طاحون المعصرة ، وإن يكتب معادلة موته .
 - السم الصهيوني ضد الزيت الفلسطيني .
 وعلى كعب من الكاوتشوك ظهر الكليشيه الاول لنشرة « الشرارة » .
 وبدا الحزب نشاطه .
 هم في دمي أبدا - فقد كانا كسنبليتي قمح في حقل من الجراد (س . ب)
 و (م . ن) . فمن يدي هاتين السنبليتين ومن يدي تألفت في غزة أول خلية شيوعية ؛
 بعد أن تحولت عصبة التحرر الوطني في فلسطين إلى (الحزب الشيوعي الاردني) ؛
 بعد الحاق الضفة الغربية بالاردن . وتحول أجمل وأشجع الشيوعيين الفلسطينيين
 إلى شيوعيين اردنيين :
 - فؤاد نصار - عبد العزيز العطى - فائق وراة - وآخرون كثيرون .
 وهكذا كان علينا في قطاع غزة . المحاصر بين الماء والاسلاك الشائكة ؛
 ان نكون شيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة .
 مسألة التحول من حزب شيوعي فلسطيني (ع . ت . و) إلى (ح . ش . ا)
 انركها الآن وأنا في زنزانة في الطابق الثاني من السجن الحربي - الطابق
 الثاني والآخر - .

أنا الحائز على شهادة ليسانس الآداب من الجامعة الأميركية بالقاهرة ،
 كان علي أن انتظر شهرين لكي أقبل مدرسا للغة الانكليزية في مدرسة « البريج »
 الاعدادية التي تشرف عليها وكالة التعليم للاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة ،
 ورغم هجرة الاصابع التي تكتب إلى الخارج . بدأنا نكبر كشيعيين ، وانضم اليانا
 عامل كان يوزع مسحوق الحليب المجفف المخلوط بالماء على اطفال المدارس في
 مخيم « البريج » ، وبعده انضم اليانا عامل كان عليه أن يخطط الاغصان بالتراب
 ويصنع القرميد الاحمر في مخيم « النصيرات » ، ورفض أن يلعب بالتراب .
 فلسطيني من غزة كان اسمه (نمر هنية) ، كان يحب المطر ويكره الوحل .
 لم يكن يريد أن يخترع حجرا ، ولكنه كان يريد أن يقول لهم :
 - ان الحجر المزور أكثر خطرا من ورقة البنكنوت المزورة .
 ولقد كافاته وكالة تموت اللاجئين الفلسطينيين في قطاع غزة بالطرد من عمله
 لانه رفض أن يزور التراب وأن يحوله إلى حجارة قرميد .
 بدأت أعلم أبناء الفلسطينيين اللاجئين في مخيم « البريج » اللغة الانكليزية .
 ولكنني كنت أعلمهم لغة أخرى .

المؤامرة ضد الفلسطيني بعد ١٩٤٨ كانت تبدأ دائماً بالمخيم ، كانت المخيمات حتى وهي خالية من السلاح ، تشكل خطراً دائماً على أولئك الذين يريدون أن يشطبوا هذه الرقبة الفلسطينية ، تلك الاصابع ، وهذا الغم .

في المخيم علق الفلاحون المطرودون من ترقى الجنوب ، والذين جردهم « الماوي باشا » من أسلحتهم ، علقوا شراشرهم في سقوف الطين المزورة وانتظروا طويلاً أن يعودوا الى اشجارهم وأخذوا يحتالون على أنفسهم ، فزرعوا الاشجار في المخيم : زرعوا الدالية ولكن عنقود العنب في قرية (بربرة) يختلف عن عنقود العنب في مخيم (المغازي) . والمفاتيح الخشبية والحديدية التي حملوها معهم من بيوتهم القديمة . طال الوقت عليها . لقد تحولت الى مسامير في عظامهم .

وبداوا يتكلمون . بدأ صوت الشرشرة ، وصوت المفتاح الخشبي ، وصوت عنقود العنب المزور يرتفع . لقد تم طرد شعب من أرضه . صحيح ان القرى والمدن تحولت الى مخيمات ، ولكن اللاجئين قد تجمعوا . ولقد حاولت وكالة الغوث ابادتهم بالماء . ولكنهم في الشتاء عرفوا كيف يحولون اجسادهم الى سفن صغيرة .

كانوا يعرفون دائماً ان اعداءهم ضد الاصابع الفلسطينية ، الاصابع التي تضغط على الزناد او الاصابع التي تضغط على اصابع الطباشير .

وارسلوا اولادهم لكي يتعلموا في العراء ، وارتفع صوت اليد الفلسطينية التي تعلم . تحولت الصحارة الى لوح . وبقطعة من الكلس كان المدرسون يكتبون على تلك اللوح التي صبغوها بأيديهم . وبدأوا يعلمون الاطفال . وبدأ الامل يدب . فحينما كان الطفل الفلسطيني في مخيم — البريج ، النصيرات ، المغازي ، الرمال — جباليا ، رفح وخانيونس ، دير البلح وبيت حانون — ، حينما كان الطفل يمسك بالقلم ويظهر صوته فوق الورقة . كان الاب يحس ان لحمة قد بدا يخضر وان يده ستحمل السلاح ذات يوم . الابن يضغط على القلم والاب اصبح يحلم بالضغط على الزناد .

آخر الشهر كانت مكافأة المدرس : حزمة من البصل ولفة من السمك المقدد . ورغم ذلك فقد واصل المدرسون في المخيمات الكتابة بالكلس . ولم يتركوا اصابع الاطفال الفلسطينيين قصاصات من الاوراق في الهواء .

من قطعة الكلس ، ومن الواح الخشب الرديئة ومن الدفاتر الرديئة ومن الحليب المخلوط بالماء ظهر المدرسون الفلسطينيون الذين مضوا يعلمون بالقلم في شرق وغرب وشمال وجنوب الارض العربية . لم يموتوا ولكنهم تحولوا الى تلاميذ . وعند العصر وحين كان يعود التلاميذ بكتبهم ودفاترهم ، كانوا يعلنون انتصارهم على الجراد الابيض الآتي في الصناديق الامريكية .

وكان على المؤامرة أن تأخذ وجهاً جديداً ، وبدأت الصحف المصرية تكتب عن المخيمات ، عن مستشفى السل في البريج ، عن هذه العصابات الفلسطينية التي تشبه رقابها الخيوط . لقد بدأ التحضير لتنفيذ المؤامرة . وهنا بدأ عصر الغارات الاسرائيلية على المخيمات ، في الوقت الذي اكتشف فيه قباطنة وكالة غوث اللاجئين جزيرة وسط رمال سيناء . تصلح لتوطين واسكان اللاجئين في قطاع غزة .

وهكذا بدأت أول غارة اسرائيلية على مخيم البريج . كان لا بد من تفكيك المخيمات وترحيلها الى سيناء . حينما توقف بنا الباص في ذلك الصباح أمام بوابة مدرسة البريج الاعدادية للاجئين كانت الغارة الاسرائيلية قد تم تنفيذها : ٢٦ قتيلا وعشرات الجرحى والبيوت التي تم نسفها . ومن بوابة مدرسة البريج اندفعنا الى مخيم النصيرات ، وجردنا جنود المباحث من اسلحتهم ، كانوا يكتبون التقارير باقتلامهم ضد المخيمات في حماية بنادقهم .

وحينما رأت الفلاحات في مخيم النصيرات البنادق في ايدينا ، انطلقت الزغاريد . الفلاحة الخرساء ، جعلتها البندقية تنطلق حينما رأتها في يد ولدها . في اليوم الثاني ظهر جاويش المباحث (العكاوي) وقد ربط وجهه ، أصابه حجر احد الاطفال فوق انفه تماما ، هذا الانف الذي كان يكره دائما رائحة الوجه الفلسطيني . ظهر في مخيم النصيرات وكنا في سجن غزة المركزي . كانت المرة الاولى التي ادخل فيها السجن . وهكذا جمعتني الزنزانة مع طلابي بعد أن جمعتني بهم حجرة الدراسة ولدة شهرين من مدرسة البريج الاعدادية .

— التهب دمهم فتظاهروا .

هكذا كان يقول بعض المعتدلين .

— معركتنا ليست من أجل المخيمات ولكن من أجل القرآن .

كانوا ضد القرآن وضد — فتحي البلقاوي — أيضاً .

— اطلقوا سراجهم ولكن ابعدوهم عن المدارس .

وهكذا وجدت نفسي مطرودا من مدرسة البريج . ولكن الحزب كان قد أخذ يمشي في المخيمات .

الشيخ « عز الدين » كان اخا مسلما أشعلته التظاهرة ، جمع طلاب الفصل الابتدائي وقادهم من شط النصيرات الى شط غزة .

واعتقلوا الشيخ « عز الدين » وتركوا التلاميذ ، لم يتعلموا في ذلك الوقت كيف يعتقلون الطفل الفلسطيني في السابعة أو الثامنة من عمره .

غير ان الاطفال الفلسطينيين الذين علمهم الحزب كيف يقطعون المسافة بين شط النصيرات وشط غزة ، اطفال تظاهرة البريج ، أصبحوا فيما بعد يقطعون

نهر الاردن والبنادق في ايديهم .
وهكذا بعد تظاهرة البريج وجدت نفسي كاتباً في ورشة سيارات الوكالة في
غزة — الاميون — خلعوني من بين التلاميذ وزرعوني بين العمال . وهكذا بدأت
علاقتي بطيور البجع .
في عربة — لوري — كنت امضي في الخامسة والنصف صباحاً الى الورشة ،
مع العمال الميكانيكيين ، وكان علينا أن نسبق موعد انطلاق الباصات . لحمل
المدرسين والمدرسات الى مدارس الوكالة .
كنت الف الفطور في ورقة جريدة وامضي لانتظار اللوري على راس الشارع
المواجه لبيتنا في منطقة الرمال بغزة . وكمن يخبىء ديكاً في صدره ، علمني العمال
الميكانيكيون كيف اصحو تماماً عند الخامسة .
على كومة من الرمال ، كنا نجلس ، نفتح اوراق الجرائد ونتناول طعام
الفطور ، وهكذا أصبح يجمعنا معاً رغيف واحد .
كان الميكانيكيون يحاولون أن يخفوا عني الى أقصى حد ومطاة عذاب العمل
في الورشة ، ولكنني افهمتهم انني سعيد بوجودي معهم .
بعضهم كان لا يفهم ، كيف اقبل بوظيفة كاتب في ورشة . وأنا خريج الجامعة
الامريكية والطريق مفتوحة أمامي الى خارج القطاع .
في ذلك الوقت كان « سعد حمزة » حاكم غزة العسكري ، ومدير المباحث
العامة أيضاً ، يذهب الى المخيمات الوسطى — البريج — النصيرات — المغازي —
ويصرخ في اللاجئين :
— الأفضل أن تذهبوا الى سيناء في اللوريات بدل أن تذهبوا اليها مشياً
على اقدامكم ؟
وقلت للعمال : ان ذهابي الى الخارج كذهاب اللاجئين الى سيناء .
واخذ العمال يصفون الي أكثر . أحدهم كان ميكانيكياً بارعاً ، ولكنه لا يعرف
الا اللغة العربية . فطلبت منه أن أعلمه اللغة الانكليزية ، موافق بفرح . وانضم
اليه عاملان ، وهكذا تحولت الورشة الى حجرة دراسة .
أعطيت لأحدهم نشرة « الشرارة » كنا لا نزال نطبع الكليشيه بواسطة كعب
الكاوتشوك ، ولا نزال نكتب بقلم الكوبية . وكنا ما زلنا نستخدم الكربون ، في
اليوم التالي أرجع لي « النشرة » — كنا دائماً نسترجعها — حتى لا تتسرب
نسخة الى البوليس .
مد يده بها وقال :
— هل الى هذه الدرجة تحبون العمال ، وأنا أقرأها أحسست بالخوف ،

فكيف الذي يكتبها ويوزعها ؟ ..

اجل ايها الرفيق ، لقد أصبح نصف لحمنا من الورق ، من اجل ان نقرأ ما نكتب . وكان الورق عزيزاً وصعباً . فالمكتبات كلها تحت الرقابة البوليسية ، وكان المطلوب من كل صاحب مكتبة ، ان يبلغ البوليس عن اية لفة من الورق يبيعها . وحل الرفاق المدرسون المشكلة ، مصرنا نستورد الورق والحبر والكربون واقتلام الكوبية ، من مخازن مدارس الوكالة .

اربعة اشهر في الورشة ، كان يناضل فيها — خليل عويضة — المشرف على التعليم في مدارس اللاجئين ، هذا الصافي والصلب كحجر الماس ، من اجل اعادتي ثانية الى الطلاب . ونجح أخيراً ، صدر القرار بنقلي من الورشة الى مدرسة « جباليا الاعدادية » .

كانت نشرة « الشرارة » قد طارت في ذلك الوقت الى مصر ، وقدمت تظاهرة البريج ، اوراق اعتمادها الى الشيوعيين الفلسطينيين والشيوعيين العرب ، والشيوعيين المصريين وقرروا مساندتنا .

وجاء (خ . ش) من القاهرة ، وكان يحمل اجمل هدية ، يمكن ان يحملها شيوعي الى شيوعيين في مثل ظروفنا ، وكانت الهدية ، آلة رونيو بدائية . ومع ذلك فقد كانت شجرة الحزب ، التي تم بها طبع منشور الحزب التاريخي ، والذي تنبأ فيه بمذبحة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ .

واتخذنا قرار عقد اول مؤتمر للحزب ، فعصبة التحرر الوطني ، أصبح اسمها ، الحزب الشيوعي الاردني بعد الحاق الضفة الغربية بالاردن . وأعضاء العصبة في الارض التي احتلتها اسرائيل أصبحوا في حزب (ركاكح) ، ولم يبق غير الشيوعيين الفلسطينيين في قطاع غزة .

وأعدنا اللائحة الداخلية للحزب ، والبرنامج المرحلي ، والذي كان على راسه اسقاط مشروع سيناء ، والذي كان قد وقعته وزير الخارجية المصري : محمود فوزي ، وبالحروف الاولى ، مقابل حفنة من الدولارات .

وانعقد المؤتمر الاول في أواخر عام ١٩٥٣ ، في بيارة (خ . ش) . كنا خمسة مندوبين ، وتمت الموافقة على اللائحة الداخلية ، وعلى البرنامج السياسي المرحلي ، وشكل المندوبون الخمسة ، لجنّتهم المركزية الاولى ، وانتخبت سكرتيراً عاماً لها ، وهكذا تم التحول التاريخي من (ع . ت . و) الى (الحزب الشيوعي في قطاع غزة) . وتم الانتقال من ورق الكربون الى ورقة « الستانسل » .

ودارت آلة الرونيو . وقدمت الطاحون التي كنا نلقي فيها ورق الستانسل والحبر ، الرغيف الجديد للحزب وانضم رفيقان جديدان للحزب ، انهاء مدة الحكم

عليهما : الرفيق فايز الوحيددي ، هذا المفاضل العزيز ، الذي حينما توقف القطار عند محطة رفح الفلسطينية — بعد الانراج عنه — نزل من العرببة يرب الى ذراع سجانة ، وسقط فوق الارض ، وراح يمسح وجهه بالتراب وهو يصيح — آه ايها التراب الفلسطيني .

اما الرفيق الآخر فكان عبد الرحمن عوض الله . لقد عاد من السجن دخله طالباً صغيراً ، فعاد يحمل شهادة التوجيهية ، درس في السجن ونجح كان ابن مخيم النصيرات ، واجمل من شهادة التوجيهية التي عاد يحملها ، صوته الشيوعي . ونور الانراج عنه . جاء الى الحزب ، وقدم يده وصوته ودم هذه شهادة . اجل فالقبطان فوق السفينة هو الذي يقوم بمراسم الزواج والسفينة تمضي الآن في البحر .

★ ★ ★

الحصار اخذ يشتد من اجل تمرير مشروع سيناء ، وكالة الفوئ من جها ومعها بعض المخاتير في بعض المخيمات ، والذين اختاروا ان يقدموا عيون الاطه الفلسطينيين في المخيمات ، بيضات مسلوقة للمخابرات المصرية وغيرها ، والحز الشيوعي واصدقاؤه الوطنيون ، ومنهم — عبد الله أبو ستة — كان المسؤول عن اللاجئين الفلسطينيين ، اعطوه مكتباً من الخشب في مواجهة مركز البوليسر لكي يظل في حالة تهديد دائم . كان علينا ان نذهب الى المخيمات ، والى الفلاح الذين تحولوا الى « متسللين » وكانوا من فلاحى غزة . كان الواحد منهم ، حيا يرى الزرع ينمو في أرضه ، وراء الاسلاك الشائكة ، يمضي ويقص بأصابع الاسلاك ، ويذهب لزرعه .

حينما تتوقف الطاحون ، فهذا ليس ابداً دليلاً على خيانة التمح .

— صهيوني دبر حالك نفذوا الثوار

معهم نوزي القاوتجي البطل المغوار .

اشرعة السفينة تطرد هذا الصوت :

— ما اكثر ابناء وبنات آوى ، في تاريخ الشعب الفلسطيني .

عبد القادر الحسيني ، يعود من دمشق ، في اصعب الايام عام ١٩٤٨ كل ما اعطوه له كان رصاصاً فاسداً كعيونهم تماماً ، رصاصاً فاسداً كعيونهم وقنابل فاسدة كتلوهم ، كان معه : — فخري مرقة — جر كيس الذخيرة الفاسه وراح عبد القادر الحسيني يصيح :

— لا بد ان يموت شيء معروف للناس ، لكي يعرف الشعب وجه ويد المؤامرة

كان يردد تماماً ما كان يقوله لنا فؤاد نصار ، كان ينظر الى عامل مصري مسحوق من العريش :

— انهم سيدخلون « بجيوشهم » من اجل أن نتحول الى لاجئين ، تماماً مثل هذا العامل من العريش .

الفلاح من غزة ، يقص بأصابع يديه الاسلاك الشائكة ، ويذهب لزرعه ، يعود بحزمة سنابل ويسقط مثقوباً بالرصاص ، وفي صباح اليوم التالي يعلنون : عن قتل متسلل .

لم يكن كل شيء هادئاً في الميدان الغربي من غزة .

اول لقاء بالفلاحين من غزة ، كان في بيارة : الشيخ على دلول . كان مصاباً بصداق دائم ، ولكنه كان يريد أن يكون شيئاً جديداً . وعرفني من خلال تظاهرة الريح ، فأراد أن يلتقي بي . والتقيت به ، كنت مع رقيق ، كان أباه وجدته لأمه وأبيه من الفلاحين في غزة (أ. م) . كان الشيخ علي دلول قد أحضر شاعراً بربائته الى ديوانه في البيارة . حينما يشتد العذاب يذهبون الى الشعراء ، تماماً كما نمشي الى الله حينما نركب الطائرة .

وبدا الكلام عن مشروع سيناء ، وبالنسبة الى الفلاحين ، فالارض التي تحت أقدامهم ، الارض التي يروونها ، الارض التي يشقونها بالمحاريث ، ويلقون فيها البذور ، الارض التي يترمرع فيها الزرع ، الارض الموجودة برائحتها ، هي الارض المقتعة ، كانوا فلاحين من غزة ، ولكنهم كانوا ضد أن يذهب أي فلاح — خارج قديمه .

— انه الموت بالنسبة للفلاح ، أن يمشي خارج قديمه ، وخارج يديه .

والفلاح دائماً كالديك ، يصبح بحوصلة مملوءة بالقمح ، ويصبح بحوصلة فارغة ، وما أكثر ما علموه الصباح وحوصلته فارغة .

الفلاحون كانوا ، مع كتابة مذكرة ضد مشروع سيناء ، كانوا مع المذكرة التي كتبها ، وكانت موجهة الى الحاكم الإداري العام في قطاع غزة .

ورفع « الشاعر » ربائته وصاح :

— هذا لا يجوز ، لا يمكن مخاطبة أصحاب الامر بهذه اللغة .

كان يرهب الفلاحين بربائته ، بصوته ، بحركات يديه ، وفوق كل هذا فقد كان يرهبهم « بالزير سالم » . عندها صرخت :

— لو كان الزير سالم معنا لوقع هذه المذكرة ، ضد مشروع سيناء .

وسقطت الرماية من يد الشاعر ، كان يريد أن يظل يعيش بصوته على أمجاد الزير سالم . من يدري ، ربما كان الزير سالم ضد مشروع سيناء ؟ ووقع

الفلاحون على المذكرة، بعضهم « بصم » ، وبعضهم أخرج « الختم » ، والقليل وقع .
وعدت في منتصف الليل ، تحت المطر ، وأنا أحمل بصمات واختام وتوقعات
الفلاحين ، فوق أول مذكرة ترفع لمسؤول مصري ، وهو الحاكم الإداري العام
لقطاع غزة ، ضد مشروع سيناء .

بعد أيام ، رأى الفلاحون توقعاتهم ، رأوا اسمائهم واختامهم ، وفرحوا
رغم تهديد الباحث والمخابرات لهم ، بشطب اسمائهم من المذكرة .
وبدأت عملية جمع الاسماء ضد مشروع سيناء ، وإذا كان المخيم هو الرئة ،
فالمدرسون في المخيم هم الهواء . وبدأ تجميع الهواء ضد مشروع سيناء . بدأ
التحضير لجمع المدرسين والمدرسات في مدارس وكالة غوث وتشغيل اللاجئين
في نقابة واحدة .

الهواء والرئة ، وكان علينا أن نتنفس وبشكل علني . ورحنا نحضر لأول
نقابة للمدرسين والمدرسات في قطاع غزة .

فتحي البلعاوي ، كان قد وصل الى قطاع غزة ، كان الاخوان المسلمون
براهنون عليه كحصان ذي جناحين يطير ولا يمشي ، ولكن فتحي البلعاوي حينما
كان عليه أن يقرر ان يقف فوق الارض أو فوق الهواء ، اختار الارض . وهكذا
اصبح فتحي البلعاوي في القلب :

مثل أخي — ابن أمي وأبي — كنت أحبه — ولا ازال — وكنت أمسك بيده
وأذهب لبيتنا وأقول لامي :

— يجب أن يتزوج فتحي البلعاوي .

كان الحزب قد اتخذ قراره أن يخوض انتخابات نقابة المعلمين ، وبصوته
الخاص ، بيده الخاصة ، وعلى أرضه ، رغم أننا كنا نعلم جميعاً ، أن الانتخابات
ستأتي بأغلبية « فتحي البلعاوي » . ونجحت في انتخابات النقابة ، بعض المدرسين
من الاخوان المسلمين اعطوني صوتهم ، كانوا يريدون صوتاً ما يرتفع باسمهم ،
فلقد اختاروا — فتحي البلعاوي — صوتاً لهم ، لأن المطلوب في ذلك الوقت ، لم
يكن الوقوف ضد معاوية بن أبي سفيان — في التاريخ — ولكن ضد مدير المباحث
— في الجغرافيا — في قطاع غزة .

واخترنا مقر النقابة ، في مواجهة ادارة الحاكم لقطاع غزة . كان البيت الذي
اخترناه منخفضاً ، فقررنا ، صنع سارية طويلة ، نعلق فيها العلم الفلسطيني .
التنظيمات الاخرى ، لم تكن ، قد خرجت من البيضة بعد . كانت لا تزال في
— دور التفرغ — . بعدها ، خرجت تلك الصيصان من البيض عام ١٩٥٦ ،
لتشعل النار في مدارسنا ، ولكي تطالب بهتاف ضد — عبد الكريم قاسم —

و ضد الشيوعية ... ؟

وانعقد المؤتمر الثاني للحزب ، اصبحنا ثلاثة عشر مندوباً في المؤتمر ،
وخلايا الحزب اصبحت في كل المخيمات .
والمؤتمر الثاني انعقد ، في بيرة ايضاً ، في بيرة الرقيق فايز الوحيد .
وللمرة الثانية ، انتخبت ، سكرتيراً للجنة المركزية . وفي ذلك الوقت ايضاً ،
اصبحت ناظراً لمدرسة جباليا الاعدادية .

وطني لن نهلب
الصعاب والعذاب

هكذا كان التلاميذ يقفون فوق منصة الأسمنت في ساحة مدرسة جباليا
وينشدون ، أول نشيد كتبته لهم . « خليل لبد » : كان يقود تلك الجوقة ،
اين هو الآن ... ؟

وكان يوم افتتاح نقابة المعلمين لمدارس اللاجئين يوماً مشهوداً في تاريخ غزة .
ارسمي من دمي ومن اصفادي

يا ايادي خريطة لبلادي ...

كان رجال المباحث والمخابرات يحيطون بالدم وبالخريطة ، وفي ايديهم الاصفا
حول مبنى سينما السامر في غزة ، حيث اقمنا يوم الافتتاح .
الضحيا قد عاتقتها الضحايا

والايادي تشابكت بالايادي

فنهوضاً الى النضال نهوضاً

لا يعيش البركان تحت الرماد

بعدها خرج المدرسون والمدرسات في تظاهرة من بوابات سينما السامر
في غزة ، وحينما رأى جنود المباحث والمخابرات الدم فوق الاصابع ، سقطت
الكلبشات من ايديهم ، وهربوا .
كان عصر فلسطينياً كبيراً .

لم ترض المباحث ولا المخابرات ، على نتيجة الانتخابات لنقابة المعلمين ،
ورغم أن اومباشي المباحث « موسى أبو قنيبة » كان هو المشرف على صناديق
الانتخاب ، وكان يتولى عملية الفرز .

اطلق لحيته بعد ذلك ، ربما احتجاجاً على انتخابي ، او انسجماً مع طلب
العضوية للاخوان المسلمين .

غير ان الناس في القطاع ، كرهوا هذا الاومباشي اكثر ، وبالأذات بعد ان
اطلق لحيته . فالفلاحون يحبون لحيه الارض ، يحبون أن تطلق الارض لحيتها

او شواربها ، ولكنهم لا يحبون لحية جندي المباحث . لا يحبونه ، لا عريان ، ولا مكسواً بالشعر . فالمباحث كانوا دائماً قمل الفلاحين .

★ ★ ★

كنت احمل « نشرة الشرارة » ، الى الشيخ — محمد خلوصي بسيسو — ليرحمه الله كثيراً ، فقد علمني الكثير . نعمي احمد القاني في البحر ، وهو القاني في الخبر .

— اعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

كان يصيخ شيخني . كلما قدمت له نشرة الشرارة ليقرأها ، كان قاضي غزة الشرعي ، فكيف يقرأ ما يكتبه الشيوعيون .

يرفض الشرارة علناً . ولكنه حينما يأوي لغرفته ، كان يخرجها من تحت وسادته ، يقرأها أكثر من مرة ويهمس في وجه صديقه : جعفر فلل !

— هؤلاء الشيوعيون ، انهم يعرفون كيف يكتبون .

كانه اراد ان يكافئني ، ويقول لي :

— استمر .

اهداني كتاب « طوق الحمامة » لابن حزم . كان مخطوطاً نادراً وصادته المباحث ، لأنه كان كتاباً مكتوباً بخط اليد ، ولا بد أن يكون منشوراً ؟... الكتب المطبوعة ، كانت هي الكتب الشرعية بالنسبة لهم .

كان شيخني يريد ان يقول لي :

— اقرا ابن حزم ، وسوف تفرح كثيراً ، لا توجد أبداً قضية بدون عشق ، ولا ثورة بدون فرح .

لو عاش لقال لنا أكثر ، وبكيت كما لم أبك فوق راسه .

كنت أمشي اليه دائماً ، وكان يقول :

— أجمل من السباحة في البحر ، السباحة في رذاذ المطر . تذكر هذا دائماً .

كان يقول لي هذا وهو يهزني بيديه من كتفي :

— أن ت اخترع حرفاً جديداً بعد حرف (الالف) ، فحرف (الباء) موجود ، ولكن حاول ن تصور شيئاً ما ، لا بين الالف والباء ، ولكن بعد الحروف كلها ، حاول ان تصور وحذار ان تكتب ...؟ بعد اللغة يوجد الشاعر صورة ، وهو قبلها يكون اسماً ...

وحينما توجد آلة الرونيو ، يكون المنشور وهو قبلها كان .

★ ★ ★

بواسطة صديقة للحزب ، تمكنا من الحصول على تقرير مشروع سيناء ،

الدفعات الثالث

الذي كتبه خبراء الوكالة ، وكان تقريراً وقحاً ومشؤوماً ، ورغم اعتراف المهندسين في الوكالة — عن استحالة الحياة في تلك القطعة من جهنم — في سيناء — لقلة المياه والتكاليف الباهظة لاستصلاح الرمال ، ورغم ما كتبه الاطباء عن الامراض التي ستداهم اللاجئين ، والتي ستهدد حياتهم ، وبالذات حياة الاطفال ، حيث لا تستطيع لا عيونهم ولا رئاتهم تحمل ذلك الهواء المقتل بالغبار ، الا ان التقرير حمل موافقة الخبراء على المضي في تنفيذ المشروع ، ولكنهم اقترحوا ان تتم التجربة على عشرين ألف لاجئ ، يدرس الخبراء بعدها على الطبيعة ، ارسال الدفعات الاخرى من اللاجئين ... ؟

وصدر قرار الحزب ، بطبع التقرير وتوزيعه على كل الشخصيات الوطنية في القطاع ، وفي الوقت نفسه ان يقوم المدرسون الشيوعيون واصدقاؤهم الوطنيون ، بتحويل حصة التاريخ ، الى حصة فضح لتقرير مشروع سيناء .
قرر الحزب النزول الى المخيمات بمنشور جماهيري ، وكان هو المنشور الجماهيري الاول للحزب ، وبعد غياب اكثر من خمس سنوات .

وكلفت من (ل . م) بكتابة المنشور فوافقت (ل . م) عليه . وسلمته للرفيق (ا . ف) مسؤول الجهاز الفني — عضو اللجنة المركزية — لطباعته ، وكنا قد حددنا يوم توزيع المنشور وكان ذلك في منتصف فبراير ١٩٥٥ ، الساعة السابعة مساءً ، وكان على رأس القرار ان يقوم اعضاء (ل . م) ، بتوزيع المنشور مع كافة الرفاق . واستثنينا فقط الرفيق فايز الوحيددي ، لعجزه عن الحركة .

في اليوم التالي جاعني الرفيق مسؤول الجهاز الفني ، وأعلمني ان آلة الرونيو لا تعمل ، وقررت النزول بنفسني لفحص الجهاز ، ورغم معارضته الشديدة ، وانه لا يتحمل مسؤولية ظهوري في حارة — الفواخير — حيث كان يقيم .
في حارة الفواخير ، وتحت حوض من الاسمنت ، فوقه حنفيه ، كانت آلة الرونيو ممددة ، كفلاح ينتظر يوم القيامة ، لكي يعود يحرق الارض .

★ ★ ★

المنشور يتبعه المنشور ، والآلة تعمل ، والليل يتقدم ، وكلما كان النعاس ياتي الي من رائحة الحبر ، كنت أحس بالهواء المقتل بالغبار القادم من سيناء يقتحم النافذة ، فأتذكر انه سيكون مسامير الرمل في رئاتي اطفالنا .
بعد منتصف الليل ، انتهيت من طباعة المنشور ، عشر ساعات واتنا وراء ذلك الصندوق من الخشب . الحجرة كلها كانت مغطاة بالمنشورات ، لكي تجف ،

وبين هذه المنشورات رقدت ، لاصحو عند الفجر . في سلتين كبيرتين ، وضعت المنشورات ، واكتشفت أن بصمات أصابعي كانت على عدد كبير من المنشورات ولكن ما الذي يمكن عمله ، والصباح يتقدم ولم يطل ترددي ، ملأت السلتين وكان غطاء كل سلة من ورق التين ، من ورق تلك الشجرة صديقة الاطفال ذات الطفولة النادرة ، التي تخبىء يد الحزب الآن .

وخرجت بالسلتين من حارة الفواخير ، ولم يتصور أحد من الذين راوني عبر الحارة أن في هاتين السلتين تلك المنشور التي ستلعب بعد أسبوعين دوراً تاريخياً في حياة قطاع غزة ، وأن يوماً قريباً سيجيء يعلن فيه جمال عبد الناصر أن يوم ٢٨ فبراير ١٩٥٥ ، كان يوم كسر احتكار السلاح . وتم توزيع المنشور في الوقت المحدد تماماً ، من بيت حاثون الى رفح الفلسطينية . رفيق وضع المنشور في صندوق بريد الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، ورفيق آخر رماه فوق حائط مدير المباحث فسقط في ساحة البيت ، ورفيق ثالث الصقه فوق حائط أمام مركز الباصات الرئيسي في غزة .

بعد توزيع المنشور ، وفي الطريق الى بيتنا ، اعترضني احد تلاميذي القدامى في مدرسة البريج ، لقد ترك المدرسة ليعمل شيئاً ما ، فأعطاه والده كل ما يملك ، بعض الجنيهات المصرية ، فاشترى صندوقاً خشبياً وبعض برطمانات الدهان ومرشنتين ، كانت الدموع تطفح من عينيه ، نكبة ما حلت بأسرته لا أذكرها الآن ، ولكنني أذكر أنه كان في حاجة الى بعض النقود أو يكون مرغماً على بيع صندوقه الخشبي . كيف أقول له أنني وأنا ناظر مدرسة البريج الاعدادية لم أكن أملك تلك الجنيهات ، وما زلنا في منتصف الشهر ... ؟

وبشكل تلقائي خلعت حذائي وقدمته له ، وكان حذاء جديداً ، أرسله لي أخي من الكويت ، وكان أول مرة أمشي به ، هو هذه الليلة احتفالاً بتوزيع المنشور . — خذه به ، هذا كل ما أملك . وأخذه الصبي ومضى ... وعدت الى البيت بجوربين مرصعين بالوحل .

بعد اطلاق سراحني في تموز ١٩٥٧ ، جاء والد الصبي للتهنئة ومعه ديكان . — الحذاء يتحول الى ديكين ... ؟

في الصباح ، عقد شرطة المباحث والمخابرات اجتماعاً مشتركاً ، وقد أشعل المنشور النار في عيونهم وأيديهم . لم يتصوروا أبداً أن وثيقة خبراء الوكالة حول مشروع سيناء ستصل الى يد الحزب ، وأنه سيجريها ويطبعاها ويوزعها في منشور .

وقاموا بحملة تفتيش مسعورة ، ولم يكتفوا بقلب كل شيء في الحجرة ،

بل قاموا في بعض البيوت ، بحفر الارض ، وفي أحد البيوت خلعوا البلاط بحثاً عن آلة الرونيو .
ولكن آلة الرونيو كانت هناك تحت حوض من الاسمنت مملوء بالماء . . .
والحنفية فوق الحوض كانت ترشح قطرة قطرة . . . تسقط فوق حوض الاسمنت
كانها هي الاخرى كانت تطبع فوق الاسمنت منشور الماء .
في ليلة ٢٨ فبراير ١٩٥٥ حدثت الفارة الاسرائيلية على محطة السمكة
الحديد في غزة ، لقد بدأ تنفيذ المؤامرة ، وكان صباح أول مارس صباح مئات
الالوف من رفح حتى بيت حانون والتي انطلقت ايديها تصيح :
« لا توطين ولا اسكان
يا عملاء الاميركان » .

الدَفْتَرُ الثَّالِثُ

انهم يجلسون على الارصفة ، ويتوهمون انهم يعرفون كل الذي يجري في الكابيتول . ولكن الجماهير في غزة التي كانت تمشي فوق الارصفة ، كانت تعرف الذي حدث في محطة السكة الحديد في غزة . عشرات الجنود المصريين والسودانيين تم ذبحهم بالسناكي وآخرون قتلوا تحت الانقاض . واللاجئون الذين تظاهروا في مخيم البريج ضد الغارة الاسرائيلية التي كان ضحيتها عشرات الفلسطينيين ، يتظاهرون الآن ضد الغارة الاسرائيلية على محطة السكة الحديد في غزة .

كان الاسرائيليين ارادوا أن يقولوا :

— ليس هناك من يحميكم من مشروع سيناء .

وأخطأت الساقية الاسرائيلية الحساب فلم يمش إليها . الحليب المغشوش بالماء في حواصل اطفال اللاجئين .

من مدرسة فلسطين الثانوية الرسمية في غزة ، ومن لجان الطلاب الوطنية انطلقت التظاهرة الاولى . تجاوزت مركز البوليس العام في الرمال وانضم إليها

عض الاهالي وهي في طريقها الى شارع عمر المختار . وحينما نظر اليها كل من سعد حمزة مدير المباحث والحاكم الاداري العام لغزة . ومحسنى حافظ مدير لخبارات العامة ، اُبتسم كل واحد منهما للآخر وعاد الى مكتبه وهو يقول :
— انهم مجرد طلاب يتظاهرون لانهم يرفضون الاجابة على اسئلة لامتحان الصعبة .

غير ان طلاب مدرسة فلسطين والذين كانوا الشرارة الاولى للتظاهرة م يهربوا من اسئلة الامتحان . احد قادة التظاهرة الطلابية كان يصيح وهو يردد لشعار الذي اطلقه الحزب :

— كتبوا مشروع سيناء بالحبر .

وسمحو مشروع سيناء بالدم .

كنت مع مجموعة من الرفاق المدرسين والطلاب قرب مستشفى — تل سكن — او المستشفى الانكليزي الذي اطلقوا عليه فيما بعد مستشفى — تل الزهور — .

عشرات الجنود المصريين يخرجون من عربات الاسعاف فوق النقالات . حد الرفاق بادر وحملني على كتفيه . والتف طلاب مدرسة فلسطين الثانوية حول ذي ارتفع فوق الكتفين . سائقو السيارات الخاصة والباصات في ساحة تاكسيات انضموا للتظاهرة . بعض الدكاكين اغلقت ابوابها وانضمت بزبائنهم . من الذي يقول ان الجماهير لا تحب الموسيقى ، حتى وهي تتظاهر وتواجه اداق البوليس؟؟ ويرتفع الصوت :

— لا توطن ولا اسكان يا عملاء الاميركان .

في هذا الوقت ابلغ مسؤول اللجنة الطلابية في مدرسة فلسطين الثانوية ، سؤول اللجنة الطلابية في كلية غزة بقرار التظاهرات المفتوحة الذي أعلنه الحزب ، نفذ طلاب كلية غزة قرار الحزب وانضموا الى التظاهرة .

الرفيق (ح . ا . ث) كان قد عاد من سجن مصر منذ ثلاثة ايام وانضم الى تظاهرة . وهكذا اخذ النهر يكبر ، فكلما مشيت التظاهرة متراً ، كانت عشرات امتار تنضم اليها . وجاءني صوت فتحي البلعاوي كان رفيقي — حسني بلال — ي جاني ، وورائي كان اخي — س . ب ، م . آ . ر ، ج . ف ، خ . ل ، ع . س ، ن . ب ، م . ن ، ا . ح ، ع . ع .

املا كاسي برذاذ البرق واشربه نخب تلك الاسماء .

وتقدمت التظاهرة . رأسها عند سينما السامر ، كتفاها في شارع عمر لختار ، صدرها قرب كلية غزة وقدمها في حي السجاعة .

حينما ينضم فلاح الى تظاهرة طالب فهو يعطيه المطر ، وحينما ينضم عامل الى تظاهرة الطالب والفلاح فهو يعطيها : البرق .
للمرة الثانية خيل للمباحث والمخابرات في قطاع غزة ، انها تظاهرة عابرة .
فورة دم ، بعض الاحجار تلقى في البركة ، ثم يعود الماء يأخذ شكل الانباء الذي يوضع فيه .

ولكنهم بداوا يخافون حينما لم يأخذ الفلسطينيون في تظاهرة غزة شكل الانباء الذي وضعوا فيه ، منذ ان جاء المواوي باثنا ، في منتصف ليل ١٥ ايار ١٩٤٨ ، برتبة لواء على رأس الجيش المصري ليعطن فور (استيلائه) على غزة :
— حل التنظيمات السياسية في القطاع ، حل عصبة التحرر الوطني الفلسطيني بالاسم — تسليم الاسلحة . بعد غزة بثلاثة ايام اعلنت الصحافة المصرية في ذلك الوقت :

— خبر تحرير مدينة المجدل ، تحت ضوء القمر ١٩٠٠!

★ ★ ★

مشت التظاهرة حتى بلغت منتصف بيارة التري ، على بعد خمسين مترا من سينما السامر . عندها جاء لوري عسكري . وظهرت البنادق في ايدي المباحث والمخابرات ، البنادق التي لم تظهر ، حينما اغار الاسرائيليون على مخيم البريج عام ١٩٥٣ ، ولا حينما اغاروا على محطة السكة الحديد في غزة عام ١٩٥٥ . لقد ظهرت الآن لتعرض طريق تظاهرة من الطلاب والمدرسين والفلاحين والعمال .
بعض جنود المباحث والمخابرات كمن وراء اللوري العسكري . البعض الآخر كمن تحت اشجار البرتقال في بيارة التري .

الجماهير التي تحب البنادق في ايديها ، تكره السلاح حينما يكون في ايدي شرطة المباحث والمخابرات . ودائما كان الفرق بين البنادق في ايدي الجماهير والبنادق في ايدي البوليس ، هو الفرق بين حبة الرمان وبين الجرامة .
الفلاحون الفلسطينيون ، شائهم شأن أي فلاحين في الارض لا يشترون بوليصة تأمين من البعوض ، ولا شهادة حسن سلوك من الجراد .
حينما رأى الطلاب والمدرسون البنادق والمسدسات في ايدي البوليس ارتفع الصوت :

— اين كنتم يا جنباء ١٩٠٠!

كان على التظاهرة ان تتقدم او تكسر كبضة فوق خوزة فولاذية . اصبحنا على بعد عشرين مترا من اللوري العسكري الذي يقف في منتصف الشارع ويفلق

طريق التظاهرة .

عشرة أمتار بين اللوري العسكري والتظاهرة ، خمسة أمتار . عندها صدر الامر . وانطلق الرصاص دفعة واحدة من وراء اللوري ومن تحت اشجار البرتقال . البنادق التي كانت مريضة تماماً ودمها ملوث عام ١٩٤٨ ضد الاسرائيليين ، أصبحت في عنفوان شبابها ضد الفلسطينيين عام ١٩٥٥ .

يغرس اصابع كفيه في البلوفر الرمادي ، يشقه نصفين ويتقدم عريان الصدر . وتتقدم التظاهرة ورائه . حينما رأى الطلاب والمدرسون ذلك الذي يتقدم عريان الصدر ، فاتحاً ذراعيه للمسدسات والبنادق ، اندلعت النيران في ايديهم .

أصبح بين التظاهرة والبنادق ثلاثة أمتار . ولكن العصافير في بيارة البرتقال قد تحولت الى حجارة في تلك اللحظة ، والهواء تحول الى حصى .

أخي (ا . ب) كان الى جانبي مع حسني بلال . لا ازال اتذكر جسده النحيل الذي يشبه النخلة ، لا ازال اتذكره واتذكر جسده ، كالزورق الذي خرج لنفوه من الماء .

— لم يبق لديهم رصاص .

ولكن جندي البوليس (ا . ا) اطلق كل رصاص بندقيته في تلك اللحظة . وفي هذه اللحظة تماماً كانت هناك يد تدفعني ، كانت يد حسني بلال . يد الحزب . دفعتني تلك اليد لكي تنقذني وانفض ثانية . أما حسني بلال عامل النسيج في الجدول واللاجئ الى غزة ، والمقيم في حارة الفواخير فلن ينفض ابداً . لقد اعطاني حياته .

كان كل رصاص جندي البوليس (ا . ا) في رأسه وصدره ومخذه . لقد رايت النخاع الابيض يخرج من عظمه . لماذا لا يقولون في مؤتمرات الكتابة الفلسطينية ان الكتاب الفلسطينيين يكتبون بالحبر الابيض .

★ ★ ★

احترق اللوري العسكري وهرب الشرطة وتقدمت التظاهرة حتى بلغت مركز بوليس الرمال . عند بوابة المركز المواجهة تماماً لمقر نقابة مدرسي ومدرسات وكالة غوث اللاجئين ، اجتمع كل الشرطة السريين والعلميين :

— عضوان من مجلس بلدية غزة ، قاضي غزة الشرعي ، مختار الرمال ، عضو المجلس الاسلامي ، ناظر هذه المدرسة الرسمية او تلك ، مدير المباحث ، مدير المخابرات .

ويصرخ مدير المباحث — الحاكم الاداري العام لغزة — سعد حمزة :

— عودوا الى مدارسكم .
 — ويرتفع صوت التظاهرة :
 — لا توطين ولا اسكان
 يا عملاء الاميركان .
 ارى اصابعي وارى فوقها دم حسني بلال ويرتفع الصوت :
 — سال الدم
 عاش الدم
 قاضي غزة الشرعي (م . ن . ا . ش ، وبتكليف من سعد حمزة مدير الباحث
 برفع صوته :
 — الى الجامع الى الجامع ؟؟
 ولكن بيت الله لن يكون بيت سيئاء .
 ويرتفع صوت الذي شق قميصه :
 — الى السجاعة الى السجاعة الى الفلاحين .

★ ★ ★

بالنسبة للمتظاهرين كان عنق اصغر طفل فلسطيني اطول من كل منذنة .
 ولم يستطيعوا ابدا ان يخدعوا لا المتظاهرين ولا فتحي البلعاوي . فحينما طلبوا
 من فتحي البلعاوي ان يختار بين عنق الطفل الفلسطيني وبين المنذنة ، اختار هذا
 المناضل الفلسطيني — الخفاري — اختار عنق الطفل الفلسطيني ، واخذ مكانه
 الجليل في تظاهرة مارس ١٩٥٥ ، دفعا عن رموش تلك العنق التي من خلالها
 يمكن ان نرى الله الذي هو الارض والذي تجيء بعد ذلك ثورة لتعلن :
 — انه الوطن .

مات حسني بلال . في بيت اخته وراء سينما السامر في غزة . كان ممددا
 فوق النعش . كان لا يزال هو ، ذلك الشيوعي الذي راح يوزع منشور الحزب
 في منتصف شباط ١٩٥٥ في حارة الفواخير .
 حسني بلال عامل النسيج من المجدل حيث قد تم احتلال كل شجرة توت ،
 يجيء الى غزة وفي يده خيط من حرير قبل ان يموت برصاصة من يد جندي بوليس
 فلسطيني يريد ان يقول :

— تذكروا دائما ان دودة القز التي تصنع الحرير هي شيوعية .
 في صباح اليوم التالي كان علينا ان ندفن شجرة توت ، ان ندفن جسدا
 اصبح كله شبابيك .

فوق رأسه كنت اصرخ :

— يا قم حسني بلال

الدم سال وقال

والدم في صباح اليوم الثاني من تظاهرة مارس ١٩٥٥ رفع بين يديه كتفي حسني بلال . اول شهيد فلسطيني ، اول شهيد شيوعي يسقط ضد مؤامرة التوطين والاسكان .

وحينما اصبح راس حسني بلال مرفوعا فوق ايدي رفاقه وهم يمشون به الى المقبرة اطلقت شجرة توت احدى وعشرين طلقة من خيوط الحرير ، ومشت التظاهرة الى بستان الاحجار .

فوق سطح مستشفى — تل السكن — حيث كان يتمدد في حجرانه عشرات الجنود الجرحى اخذ شرطة المباحث والمخابرات يطلقون الرصاص على التظاهرة . وبدا الرصاص يسقط فوق النعش . كانوا يريدون ان يسقطوا النعش ويسقطوا التظاهرة .

عشرات الايدي راحت تمسك بالنعش وتجاوزت التظاهرة مستشفى — تل السكن — حتى بلغت المقبرة .

ان سفينة فلسطينية جديدة تنزل الى التراب : وهكذا نزل حسني بلال ، نزلت شجرة التوت المثقلة بفكاهة الحرير .

★ ★ ★

في ساحة التاكسيات قرب السكة الحديد انتخب المتظاهرون من الساحة لجنتهم الوطنية العليا لقيادة التظاهرة . كان المتظاهرون يرفعون ايديهم ويرشحون اسماء مندوبيهم للجنة ، وكانت الموافقة على اسم المندوب تتم بواسطة رفع الايدي .

من فوق عربة لوري مكشوفة وقفت اللجنة الوطنية العليا للتظاهرة وقررت عقد اجتماعها في مقر نقابة المعلمين الذي اتخذته اللجنة العليا مقراً لها طيلة ايام الانتفاضة .

في كل مخيم بدأت الجماهير تؤلف لجانها الوطنية ، وكان كل مخيم قد ارسل مجموعات من ابنائه لحراسة مقر نقابة المعلمين .

امتلات شوارع غزة من السجاية حتى الرمال باللاجئين من كافة المخيمات . كانوا فوق كل الارصفة ، تحت كل شجرة ، في ساحات المدارس ،

تحت اعمدة الكهرباء ، وحول مقر النقابة المواجه لمركز البوليس . كانت الالوف تضرب جنزيراً وتسهر طول الليل . لم تكن اللجنة الوطنية العليا تملك مستدساً ، وكانت الجماهير تعرف هذا جيداً فعرفت كيف تقوم بالحراسة .
 اللواء عبد الله رفعت الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، هرب الى العريش . احد الحرس الوطنيين يدخل ويعلن :
 — ان سعد حمزة حاكم غزة الاداري ومدير المباحث يريد ان يقابل اعضاء اللجنة الوطنية العليا .
 فلينتظر .

وانتظر سعد حمزة ساعة كاملة حتى سُمح له بالدخول وبعد ان اتخذت اللجنة العليا قرارها السياسي . كان سعد حمزة يريد ان يغادر مقر النقابة ، وفي الصباح نذهب لدارسنا وينتهي كل شيء ؟؟
 — ولماذا قتلتم حسني بلال ؟

— انكم مخطئون تماماً فحينما تجعلون الموت شيئاً فلسطينياً عادياً ، تصبح الحياة صعبة تماماً بالنسبة لكم . ورحت املى عليه مع فتحي البلعاوي قرارات اللجنة الوطنية العليا :

- ان تعلن كافة اجهزة الاعلام الرسمية الغاء مشروع سيناء .
- تدريب وتسليح المظاهرات الفلسطينية حتى تتمكن من الدفاع عن نفسها في مواجهة الغارات الاسرائيلية .
- محاكمة المسؤول عن قتل الرفيق حسني بلال والمسؤولين عن اطلاق الرصاص على المتظاهرين من فوق سطوح مستشفى — تل السكن — .
- اطلاق الحريات العامة وعلى راسها حرية النشر والاجتماع والاضراب .
- عدم المساس بحرية الذين تظاهروا في اليوم الاول والثاني والثالث من ١٩٥٥ . هؤلاء الذين يجسدون قلب وروح الشعب والوطن .
- وحمل سعد حمزة قرارات اللجنة الوطنية العليا ومضى .

★ ★ ★

منع التجول كان قد فرض على قطاع غزة كله من رفح الفلسطينية حتى بيت حانون . ولكن الجماهير كانت قد ملأت الشوارع وفرضت حظر التجول على شرطة المباحث والمخابرات ، وفي كل غزة لم تكن تتجول غير عربية جيب واحدة اهداها احد الاصدقاء للجنة الوطنية العليا ، وكنا نتجول في عربية الجيب التي يرغرف فوق مقدمتها قميص حسني بلال المصبوغ بدمه ، والذي أصبح

الفترة الثانية

علم الانتفاضة .

— سعد حمزة مدير المباحث جعلوه ينتظر ساعة ونصف قبل أن يسمحوا له بالدخول ؟

— لقد هرب اللواء عبد الله رفعت الحاكم الإداري العام لقطاع غزة إلى العريش ؟ — هكذا كان اللاجئون يتكلمون .

مصطفى حاسط قائد المخابرات الحربية لقطاع غزة يصرخ في وجهه أحد معاونيه :

— قلت لي انهم عشرون شيوعياً ، هل تستطيع ان تحصيهم الآن ؟
وكنا أكثر من عشرين شيوعياً ، ولكن النجمة الواحدة بملايين عيدان الكبريت المشتعلة .

وجاء سعد حمزة للمرة الثانية إلى مقر النقابة ليلفنا أنه مفوض من قبل الحاكم الإداري العام لقطاع غزة — اللواء عبد الله رفعت — لمناقشتنا في صيغة البيان الذي تصدره إدارة الحاكم العام ، ومناقشة قرارات اللجنة الوطنية العليا .

في مكتب سعد حمزة ، كان قد اقترح وأصر على الاجتماع وصرخ لكي يؤكد ما يقول :

— انها مهابة الحكومة .

وقررت مع فتحي البلعاوي الذهاب إلى مكتب سعد حمزة ومعنا بعض أعضاء اللجنة الوطنية العليا ولمدة ساعة واحدة ، من الساعة الحادية عشرة ظهراً حتى الساعة الثانية عشرة ظهراً وان يعلن هذا للمتظاهرين لكي يكونوا على استعداد لانتحام مركز البوليس إذا لم نخرج في الوقت المحدد .

وبالفعل ذهبنا إلى مكتب سعد حمزة ، وكانت الجماهير تحيط بمركز البوليس من كافة الجوانب .

وبدا سعد حمزة يتكلم عن هيبة الحكومة ، وعن الحرائق التي اشتعلت في بعض السيارات والاكتشاك — أحرقتها عملاء المباحث ما عدا اللوري العسكري — وشارع عمر المختار الذي كان شارع التظاهرات ، لم يرتفع في وجهه عود كبريت واحد .

في الساعة الثانية عشرة تماماً بدأ هدير المتظاهرين وبدأ صدى الصوت يضرب الاسمنت ويشقه ليصل إلينا ونحن في مكتب حاكم غزة الإداري — مدير المباحث .

— ما هذا ؟

- أنهم المتظاهرون .
- ونخرج من مكتبه الى بوابة مركز البوليس لكي يحملنا المتظاهرون فوق الاكتاف حتى مقر النقابة .
- عند العصر يأتي سعد حمزة ومعه مسودة البيان الذي سيعلن على اهالي قطاع غزة .
- وكانت المسودة تتضمن :
- أصبح مشروع سيناء غير ذي موضوع .
- موضوع تسليح المخيمات وفرض قانون التجنيد الاجباري لحمل السلاح بالنسبة لكافة المواطنين في وقت قريب .
- يقسم الحاكم الاداري العام لقطاع غزة بشرفه العسكري ان لا يحجز او يعتقل كل من تظاهر سلمياً وبالذات بالنسبة الى اعضاء اللجنة الوطنية العليا .
- أن تعمل ادارة الحاكم الاداري العام على ضمان حريات سكان القطاع .

★ ★ ★

في اليوم الثالث من التظاهرات في قطاع غزة محاصر من الاسلاك الشائكة للاحتلال الاسرائيلي ومن البحر . في اليوم الثالث حيث توقف كل شيء ، وكان الاضراب عاماً ، لا مدرسة ولا فرن ، ومن العريش بدأت تتدفق قوات عسكرية لتعزيز مواقع الشرطة والمخابرات في غزة . امتنعت القوة السودانية في قطاع غزة منذ اللحظة الاولى عن اطلاق الرصاص على المتظاهرين .

خليل عويضة المشرف العام على مدارس اللاجئين تحول قلبه الى صوت يقول لنا :

— اقبلوا فقط ببيان مكتوب تعلنه ادارة الحاكم الاداري العام بمكبرات صوت ، لم يعد امامكم وقت طويل . فحشود عسكرية من العريش قد وصلت الى مشارف غزة .

(المستقلون الوطنيون ؟) و (المثقفون جداً ؟) يريدون ان يقبلوا بأي شيء لكي يفسلوا ايديهم نهائياً من غبار اصوات الجماهير .

واتخذنا قرارنا مع البيان المكتوب ، ووافق بسعد حمزة على أن يقوم بطبع البيان واعلانه بالوسائل الرسمية على أن تقوم اللجنة الوطنية العليا بتوزيع البيان واعلانه بوسائلها الخاصة .

كان الشيء الوحيد الذي يتحرك بالنسبة للجنة الوطنية العليا ، هو عربة

الجيب وفي مقدمتهم يرغرف قميص حسني بلال المصبوغ بدمه .
في الصباح تم تبليغ بيان ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة للجباهير .
أحد السائقين قدم لنا سيارته فانطلقت بها مع الرفيق (س. ب) — سلام عليه —
الى مخيم جباليا .
فوق حائط وقفت وعلنت باسم اللجنة الوطنية العليا ، سقوط
مشروع سيناء .
— سال الدم .
عاش الدم .
هكذا كان صوت مخيم جباليا . كانت كل رؤوس اللاجئين في المخيم تريد أن
تدخل دفعة واحدة في شباك السيارة وتصيح :
— لقد انتصرنا ، وسقط مشروع سيناء .

★ ★ ★

بعد سبع سنوات من طحن الملح بالكوع ، ومن مضغ هواء الاذاعات
العربية بأصابع اليدين ، بعد سبع سنوات من لف رأس الوطن بورق الجرائد
التي تكذب ستين دقيقة في الثانية ، يحس الذين لم يكتبوا ولم يقرأوا طول حياتهم
من سكان المخيمات انهم هم الذين كتبوا وقروا بيان سقوط مشروع سيناء .
الحاكم الاداري العام لقطاع غزة عاد من العريش يسبقه بيان الغاء مشروع
سيناء . وهوت القسم بالشرف العسكري الا يعتقل احدا من المتظاهرين الذين
قادوا التظاهرة ؟
وبدأت محطات المباحث والمخابرات ، تلاحق عملائها ومخبريها بالبفزين ،
لكي يبدأوا سيرهم في المخيمات . التي طردوا منها طيلة ايام الانتفاضة ، حيث
فرضت اللجنة الوطنية العليا ، قرار حظر التجول بالنسبة لهم .
وهكذا في اليوم الخامس من الانتفاضة من مارس ١٩٥٥ ، بدأ المخبرون
يظهرون في غزة وفي المخيمات . في غزة بعض الناس حينما راوا شرطة المباحث
والمخابرات : رسموا اشارة الصليب على صدورهم ، والبعض الآخر راح يتمتم :
— اعوذ بالله ...

كان يوم ظهورهم ، يوم نحس من ايام مارس . وبالذات في الوقت الذي
كانت تعلن فيه اذاعة اسرائيل وفي كل نشراتها باللغة العربية ، أن البوليس يجد
الآن في قطاع غزة ، في مطاردة واعتقال ، قيادة التظاهرات ... ؟
وبالفعل ، فقد بدأ مكتب المباحث في غزة ، يتبادل قوائم « المشبوهين » مع

مكتب المخابرات بالاضافة الى قوائم جديدة .
وبدأت التقارير ترد الى الحزب ؛ عن حملة اعتقال سريعة قادمة ؛ وان
القائمة في دور الترتيب النهائي .
حينما سالتني امي عن صحة تلك الانباء ، عن حملة الاعتقال المقبلة ،
رغم القسم بالشرف العسكري الذي قدمه الحاكم الاداري العام لقطاع غزة :
— اللواء عبد الله رفعت — .
ابتسمت ، ففهمت كل شيء .
وحينما سالتني عن الاجراءات التي سوف نتخذها لحماية انفسنا قلت لها :
— انهم يريدون منا ان نهرب الى الخليل عبر الارض المحتلة ، لقد أعدوا لنا
الكمان على الحدود ، وهم في انتظارنا . ولكننا لن نسقط في المصيدة ، لكي نقدم
للمحاكمة العسكرية كمتسللين ، يريدون الاتصال بالعدو . . .
وأصدر الحزب قراره بالتحذير من (كمان الحدود) و (من عملاء المباحث
والمخابرات الذين تحولوا الى متطوعين ، لتهريب الشيوعيين عبر الحدود
الى الخليل) .
ابي حينما كانت المناقشة تشتمل بينه وبين امي كان يصيح :
— انه لواء في الجيش ، واقسم بشرفه العسكري . . . ؟
ولكن امي كانت تعرف جيداً هذا الشرف العسكري .

الدَفْتر الرَّابِع

الى جوار بيتنا في الرمال . صحنوا ذات يوم . وكانت عائلة قد لجأت الى شجرة توت . كانوا جيراناً بيتهم شجرة . واقمت لهم بيتاً من البطاطين . اكتفت امي بلحاف واحد لنا وقدمت كل البطاطين وبعض الطناجر والصحون ، وتسببت ببديها كل ما كنا نملك من التهوين بيننا وبين تلك العائلة المهاجرة — عائلة ابونحل — كانت عائلة ابو نحل تتألف من اخوين متزوجين ، اولادهما . واصبحت عائلة واحدة ، وقبيل انتفاضة مارس بايام ، كان — ابو نحل — قد كلف بمراقبتي . فلقد أصبح شرطياً في المباحث . . . ؟ اريد ان اقول . انه حينما يتحول احدهم الى شرطي مباحث او مخبرات ، فهو على استعداد . لكي يحلب ثدي امه . ويقدم حليبه كأس عرق . وكل ما توقعته امي قد حدث . فالشرف العسكري للمباحث والمخبرات ، قد اخذ شكله النهائي ، في منتصف ليل ٨ — ٩ مارس ١٩٥٥ ، حينما بدأت الغارة البوليسية من رفح حتى بيت حانون . على بيوت الشيوعيين والوطنيين وحتى المستقلين في قطاع غزة . على بيوت المسلمين الوطنيين وعلى بيوت الشيوعيين

معاً ، وعلى رأس القوة البوليسية التي هاجمت بيتنا في منتصف ليل ٨ - ٩ مارس ١٩٥٥ كان اومباشي المباحث : ابو نحل .

★ ★ ★

فوجيء ابي ، بالفارة البوليسية ، فطلب من - آمنة - كانت في بيت جدي لابي ، وجاءت الى بيت ابي ، وهي التي ربنتي وربت اخوتي ، وكانت من جباليا . طلب ابي منها أن تقدم القهوة (لابي نحل - ابو قنيبة) ، وبقيّة افراد عائلتهما من شرطة المباحث . ولا ازال اذكر - آمنة - وموق يدها صينية القهوة وهي تدخل الى حجرتي وقد احتلتها شرطة المباحث وكان معي اخوتي : (س. ب ، ص. ب ، ا. ب) . وجاءت امي وضربت الصينية بيدها ، فتطايرت الفناجين فوق رؤوس شرطة المباحث وهي تصرخ :

- لن اقدم القهوة في بيتي للذين جاؤوا لكي يمتثلوا اولادي ، ونظرت امي الى - ابو نحل - ، شرطي المباحث ، الذي كان يريد أن يختبئ من عينيها وراء اي شيء وصاحت :

- جئت تعتقله ... لماذا ؟؟ لقد كان يدافع عن اطفالك ... لم يبق الا أن يسلم جلدته ويقدمه لك لحافاً .

كنت انظر الى - ابو نحل - ، ولكنه كان يريد أن يخبئ عينيه ، فنظر الى قدميه دون أن يدري . دائماً المباحث ، ينظرون الى اقدامهم الكبيرة ، اقدام التي كبرت من فرط متابعة وملاحقة الايدي التي تكتب .

★ ★ ★

انا واخوتي الثلاث طلبوا منا ، الذهاب الى مركز البوليس ، لكي نجيب على بعض الاسئلة ونعود ... ؟ كنت اعرف : انه تم الاعتقال ، ولكن لم أكن اصدق ، أنهم سوف يقومون باعتقال أسرة بأكملها . ان يعتقلوا اربعة أبناء لابي وام - ولكنهم اعتقلونا جميعاً .

جندي سوداني كان يقود عربة الجيب العسكرية ، حينما صعدت وقلت له ، ولا ادري لماذا :

- نحن اربعة أخوة ..

كان يعرف ، ولا ادري كيف . فقط وضع وجهه بين كفيه ثم مضى وهو يكتفم شيئاً في عينيه .

★ ★ ★

في اسطبل الخيول . ايام الانتداب البريطاني . الذي حولته المخابرات الى
زنازين ، وحجرات تعذيب في سرايا الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، القوا بي
وباخوتي الثلاثة في وسط طابور من المعتقلين .
اولا جاء مصطفى حافظ مدير المخابرات ليتفرج علينا وراء القضبان ، وبعده
جاء سعد حمزة مدير المباحث وبعدهما جاء آخرون . . . كانوا يريدون ان يتفرجوا
على اولئك الفلسطينيين الذين كانت لهم جمهوريتهم الفلسطينية ولدة سبعة ايام ؟

★ ★ ★

— اربعة اولاد من عائلة واحدة . . . ؟
— لنترك واحداً منهم . . . ولنعتقل الثلاثة . . .
لم يستخدموا القرعة ، ولكنهم قبيل الفجر اطلقوا سراح اخي (ص . ب) .
ولم يكن يريد ان يخرج ويتركنا ولكنهم جروه الى الخارج ، فمضى وهو يجيش .

★ ★ ★

في لوريات مغطاة تماماً . والحرس كانوا من الجنود السودانيين . مضينا
من سجن غزة المركزي الى محطة العريش .
محمد يوسف النجار ، كان في عربة لوري ، فتحي البلعاوي ، كان في عربة
ثانية ، وفي عربة ثالثة كنت مع بعض الرفاق من المدرسين والطلاب والعمال
الزراعيين .

★ ★ ★

— الجماهير . . . الجماهير . . . ؟
الرفيق (ح . ا . ش) كان يطل برأسه من تحت غطاء اللوري . . . وما اكثر
ما كان ، يتصور ان اعمدة الكهرباء والتلفون هي مجموعات من الناس . . .
وكان يهتف :

— عاش كفاح الشعب الفلسطيني .
وكان يهتف معه ، حتى وصلنا محطة العريش .
كان الرفيق (ح . ا . ش) يحسدني ، لان معي اخوتي : (ص . ب ، ا . ب)
وكان يدمم :

— لو كان اخي شعبان معي ، لتعلم خبرة كفاحية . . . ؟
وصلنا محطة العريش . طول الطريق كان الجنود السودانيون يشعلون
السجائر ويقدمونها لنا ، كان هناك قطار في انتظارنا ، وفي عربة نقل خيول تم
شحننا ومضى القطار بنا . . .

... دفعونا والكلبشات في أيدينا ...
ومن هزير عجلات القطار فوق السكة الحديد ... ومن خشخشات
الكلبشات في أيدينا ، من الليل الذي كان يسقط حولنا ، كأنه الحجارة ...
رحت اصيح :

هناك ... هناك ... بعيداً بعيد ...
سيحملني يا رفيقي ... الجنود ...
المعتقلون في عربة اللوري ، راحوا يرددون ورائي مقطعا ... بعد مقطع ،
اول نشيد كتبته والكلبشات في يدي .
ويمضي الصوت :

سيلقون بي في الظلام الرهيب
سيلقون بي في جحيم القيود
لقد فتشوا غرفتي يا أخي
فما وجدوا غير بعض الكتب
واكوام عظم هو ... اخوتي
يننون ما بين أم ... واب
لقد ابتظوهم ... بركلاتهم
لقد اشعلوا في العيون الغضب

●
انا الآن بين جنود الطغاة
انا الآن اسحب للمعتقل
وما زال وجه ابي ماثلا
أمامي ... يسلمني بالامل
وامي ... وامي ... اثنين طويل
ومن حولها اخوتي يصرخون
ومن حولهم ... بعض جيراننا
وكل له ... ولد في السجون
ولكنني رغم بطش الجنود
رفعت يداً أثقلتها القيود
وصحت بهم : انني عائد
بجيش الرفاق ... بجيش الرعود

هناك ارى عاملا في الطريق
ارى قائد الثورة المنتصر
يلوح لي بيد من حديد
واخرى تطاير منها الشرر

انا الآن بين منات الرغاق
اشد لقبضاتهم ... قبضتي
انا الآن اشعر اني قوي
واني ساهزم ... زنزانتني

نعم لن نموت ، نعم سوف نحيا
ولو اكل القيد من عظمنا
ولو مزقتنا سياط الطغاة
ولو اشعلوا النار في جسدنا
نعم لن نموت ، ولكننا
سنقتلع الموت من ارضنا

— احس بالفرح الآن وقد عرفت ان هذه القصيدة التي كتبتها في فجر
٩ مارس ١٩٥٥ في لوري عسكري ، والكلبشات في يدي ، هي الآن نشيد الزنازين
في سجون الارض المحتلة — .

★ ★ ★

ووصلنا محطة مصر .
كانت محطة مغلقة ، ولم يكن على الارصفة غير الشرطة .
ومن محطة سكة حديد القاهرة ، تم شحننا في لوريات مغطاة الى مكان
عرفنا فيما بعد انه سجن مصر العمومي .
امام البوابة الخشبية لسجن مصر العمومي توقفت العربات العسكرية ،
وبدأنا ننزل الواحد بعد الآخر . اوقفونا في ظابور . ثم صدر الامر الينا بالعبور
من خلال تلك النافذة الخشبية .
كان ورائي الرفيق (ح . ا . ش) ووراء البوابة الخشبية ، كان صفان من
بوليس السجن في استقبالنا بالعصي .
وحين انهالت العصي فوق راسي صاح الرفيق (ح . ا . ش) محتجاً :

— انه الرفيق القائد .
وعرفوا انني الكباش . رأس هذا الطابور من المعتقلين الفلسطينيين .
وأعني علي من هول الضرب وصحوت ، فاذا برأسي بين يدي ، ممنوع
عليك أن تلتفت الى اليمين او الى اليسار . الى الامام او الى الخلف .
كان على الرأس الفلسطيني أن يدخل ثقب الابرة .
تحس كأن محراثاً يدور في رأسك . ماكينة الحلاقة تدور . ويسقط شعرك
هذا الصوف الفلسطيني المطلوب دائماً .
سبعة سبعة كنا نمضي مخلوقي الرؤوس ، بثياب السجن الى الزنزانة التي
اعدوها لنا . وفي حجرة طولها متران ، وعرضها ثلاثة أمتار ، دفعوا سبعة معتقلين
كنت بينهم الى زنزانة في العنبر الاول في سجن مصر العمومي .
فوق اسفلت الزنزانة تكومنا ، رأس كل واحد منا فوق رأس الآخر .
كنت أريد أن أنام .
سبعة أيام وانت تريد أن تعلن أن الليل ليس هو العدو .
الآن كل الذي تطلبه ، ساعة نوم واحدة . لقد أفلتوا باب السجن . وفي
الخمسة صباحاً سيعودون . في ذلك اليوم تماماً من صباح العاشر من مارس
١٩٥٥ ، تجمع الطلاب في ساحة مدرسة جباليا الاعدادية ورفضوا أن يذهبوا
الى حجرات الدراسة :
— لا تعليم بدون معين .
ثلاثة أيام تمر والطلاب في مدرسة جباليا الاعدادية ينتظرون . كانوا
ككرسي يقاقل طاحونة ، كعصفور يقاتل ضد ألف حائط ، كأطفال يحتفلون بعيد
ميلادهم تحت عمود كهرباء .

★ ★ ★

بعد الفجر بقليل ، أيقظني جاويز العنبر — حسن مشرف — وهو يصيح :
— استيقظوا أيها الجواسيس .
قالوا للسجانين اننا مجموعة من الجواسيس المحكوم عليهم بالاعدام ،
ولهذا ضربنا كما لم يضرب سجين من قبل في سجن مصر العمومي . فما دمننا
سنوات مقضية التعذيب تصبح سؤالاً خاصاً لمقرين من التراب ويرتفع الصوت :
— عاش كفاح الشعب الفلسطيني .
كان هو الصوت الصعب ، وكان الجواب عليه :
— اضرب فوق الظهر الفلسطيني الحنين .
وكان صوت اللواء — اسماعيل همت — .

الدَفْتر الخَـمِيس

اسماعيل شموط كان يحمل صينية الكعك ودفاتره المدرسية ويمضي يبيع
السكر لاطفال اللاجئين في مخيم خان يونس . فلسطيني يبيع السكر . فلسطيني
في ايام البحر الميت يبيع السكر للبحر الابيض المتوسط .
في اكاديمية روما للفنون الجميلة كان اسماعيل شموط يرسم نار الشتاء
الفلسطيني للشجر القادم من اضلاع — سبارتاكوس — .

... ٥٢

يد معتقل فلسطيني في الزنزانة تصطدم بظهر رفيقه المسلوخ .
لماذا يسقط — هوارد فاست — ويكتب — الهي العاري — ؟
في مسجد — الست رقية — في السجامة كنت اقتل فوق ظهر المصلين .
امام المسجد كان يقول :
— هاتوه لانفخ في اذنه او نمه وبعد ذلك لن يقتل فوق ظهور المصلين .
لعاب كل الالهة كان في نمي . دائما كنت اظن ان اذني شجرة تين ، وفي
دالية ورفضت .

تحس أنك تسقط الى قاع بئر . الفلسطيني يقتل وهو نائم . ولكن الحلم كان دائماً يقول للفلسطيني :
— سوف تصحو .

يد محمد يوسف النجار التي لم يكن يستطيع استخدامها كانوا يضربونه فوق أصابعها .

كمناقير الطيور تدخل في حواصلها ، كانت أصابع يد محمد يوسف النجار تدخل في حواصلنا جميعاً . كنت امضي مع عبد الرحمن الشرتاوي لمراتب مجلة الكاتب — صوت حركة انصار السلام المصرية — في اعقاب ثورة ٢٣ تموز . كان الرقيب العام اسمه : انور السادات . وكنا نخرج ومجلة الكاتب مندبلا من الكرتون الابيض فوقه بقع من الحبر . المساحات البيضاء في الجرائد اغنية قديمة .

تسقط أكثر في البئر . ترتطم بسطح الماء . تصحو .
ماذا قد فعلوا بالوجه الفلسطيني؟ لقد حلقوا شعر الراس وحلقوا الحاجبين .
وعريان امام رفاقك كانوا يحلقون ذلك العشب الآخر .
ماكينة الحلاقة التي دارت في الراس الفلسطيني ، كانت تدور كالمحراث في الارض الفلسطينية المحتلة . لم اكد اعرف اولئك المكونين معي في الزنزانة ، ولكن حينما استيقظنا في السادسة صباحاً على مفتاح وكرباج السجن ، عرفنا اننا لا يمكن ان نكون غير فلسطينيين .
فلسطيني يصحو ويوقظ كل الفلسطينيين في الزنزانة .

★ ★ ★

العنبر يضم الشيوعيين المصريين والاخوان المسلمين . اسكنوا المعتقلين الشيوعيين الدور الثاني والاخوان المسلمين سكنوا في الدور الثالث والرابع ، ربما ليكونوا اقرب الى الله . اما نحن المعتقلين الفلسطينيين فلقد سكننا في الدور الارضي لنكون اقرب الى الكرابيج .

من خلال الرفاق المصريين عرفت — رابطة الطلاب الفلسطينيين في مصر — بوجودنا في سجن مصر العمومي . وهكذا وصلت الاخبار الى عائلات المعتقلين في قطاع غزة ، حيث لم يكن احد يعرف اسم السجن الذي اسكنونا فيه .
امتنعت شرطة المباحث والمخابرات تماماً عن تزويد عائلاتنا بأية معلومات عنا .

سقطت هراوة على نم أحد المعتقلين تحطمت أسنانه .
يبتسم ضابط العنبر ويصيح :

— وما حاجتك الى أنسناك ، أنت ذاهب للموت .
 اللواء اسماعيل همت قبل وصولنا الى السجن جمع الضباط والسجنائين
 وقال لهم — انهم طابور من الجواسيس سوف ينفذ فيهم حكم الاعدام .
 بالكرايبج المجدولة من أسلاك التليفون كانوا يضربونا . الفلسطيني الذي
 بلا تليفون ، يضربونه بأسلاك التليفونات .

منعوا عنا كل شيء : الاتصال بالمعتقلين الآخرين ، كتابة الرسائل والفسحة
 اليومية في ساحة السجن وهي عبارة عن نصف ساعة مضي في الصباح ، ونصف
 ساعة أخرى عند العصر . من خلال خروج طوابير الشيوعيين والاخوان المسلمين
 للفسحة ، كانوا يلقون لنا بعلب السجائر ويلوحون بأيديهم مشجعين . أن تلوح
 لك يد في هذا الجحيم ، كمن يهز نخلة بين يديك .
 سيد قطب يتوقف امام باب زنزاتي . طلبت منه أن يرسل لنا بعض
 السجائر فكان جوابه :

— اقرأوا القرآن .

كانت القراءة ممنوعة علينا ، لم يكن مسموحاً للفلسطيني غير تدخين
 اصابعه . ولكن فتحي البلعاوي كان لا يدخن وكان يرسل السجائر التي تصله
 لي ولحمد يوسف النجار .
 شكلنا لجنة لقيادة النضال اليومي في السجن وكانت مؤلفة مني ومن
 فتحي البلعاوي . في كل زنزانة كان هناك مسؤول حزبي على الرفاق ، الكرايبج
 كالشعبان اذا لم تقاومه ابتلعك .
 واخذنا قرار المقاومة .

الجاويش حسن المشرف يفتح باب الزنزانة وهو يصرخ :

— الى دورة المياه ايها الجواسيس .

ورفضنا مغادرة الزنزانة وارتفع صوت أحد الرفاق :

عاش كفاح الشعب الفلسطيني .

فوجيء السجن بالهتاف . بعض الرفاق راخوا يدقون بأغطية جرادل البول
 على جدران الزنازين . استمر — كفاح الشعب الفلسطيني — في الدور الارضي
 خمس دقائق . بعدها اقتحمت مجموعة من بوليس السجن بالكرايبج والهراوات
 العنبر . بدأوا يخرجوننا زنزانة بعد أخرى والعصي تنهال فوق رؤوسنا وصدورنا
 واكتافنا . كل زنزانة كان يطلب منها الركض بأقصى سرعة ووراءها كان يركض
 بعض السجنائين وهم يلاحقون المعتقلين بهراواتهم . تم تجميعنا في ساحة التأديب ،
 وهي ساحة ضيقة توجد فيها بعض الزنازين الانفرادية حيث يلقون فيها

التفكير الحائس

بالمعتقلين المشاغبيين .

(العروسة) كانت مفتصة امامنا . والعروسة — هيكل من الخشب يشبه المرأة — المرأة الخشبية بالنسبة الى اللواء السجان اسماعيل همت — امرأة من الخشب لها ذراعان مفتوحتان دائماً — توجد في كل منهما فتحة لكي يدخل فيها السجين يده . اما الرأس فمفتوح يكفي لكي تدخل رأسك فيه . كان على كل واحد منا ان يتزوج هذه العروس من الخشب بعد ان يخلع قميصه .
تقدم من العروس . يدخل السجان ذراعيك في فتحة ذراعيها ، ويدخل رأسك في رأسها .

يتقهتر السجان الى الوراء ويبيده كرابجه الطويل ويقف في حالة استعداد .

اسماعيل همت كان يشرف على عملية الزواج .

كان ضبعاً بعينين عسليتين .

— اضرب على الظهر الفلسطيني الحنين .

وتلفك حبال الكرابج . الجلدة الاولى تحس انها قد اقتلعت ضلعاً . كأنك قد ضربت بسبيخ من النار . وتتوالى الكرابيج ، عند الكرابج العاشر تحس انك سقطت في بركة من النمل . كان معنا بعض الطلاب الذين لم يتجاوز الواحد منهم السابعة عشرة من عمره جلد حتى الكرابج العشرين .

كشجرة مضروبة بفأس في ظهرها يخرجك السجان من العروسة ويرغمك على ارتداء قميص السجين وظهرك مسلوخ . لقد تمت حراثة الظهر الفلسطيني . كل ثلاثة وعشرين معتقلاً أسكنوهم في زنزانة واحدة هي معدة أصلاً لسجين واحد . كنا نتبادل الوقت في الزنزانة .

وانت واقف تحاول ان تتذكر شيئاً ما يعاونك على الوقت . تدخل شجرة الجميز — الشجرة الفلاحة — التي تحبل وتلد أكثر من مرة في العام . كنا نتسلقها والحبات من (البلبي) التي لم تكن نستطيع الوصول اليها ، كنا نهز الفرع فينساقط ثمر الشجرة الفلاحة .

احد المدرسين المعتقلين يرفع صوته :

واني لمشتاق الى ارض غزة

وان خائني بعد التفريق كتهاني

سقى الله ارضاً لو ظفرت بتربها

كحلت به من شدة الشوق اجفاني

كتب عن غزة ذات يوم الامام الشافعي .

ولكن، غزة بعيدة كشجرة الجميز .

في صباح اليوم التالي التصقت القمصان بظهورنا ، فكان انتزاعها يشبه عملية سلخ الجلد . كانت مشكلة الاعتناء بظهورنا هي قضية الطبيبين الشيوعيين المعتقلين : د. يوسف ادريس ، د. حمزة بسيوني حينما اعادونا الى الزنازين ، كنا كمن أخرج عنه . السجن الجاويش حسن المشرف انكسرت عينه كالبيضة فوق بلاط السجن بعد عملية العروس الخشبية . حينما يكون وحيداً ولا أحد من السجناء يراقبه كان يتم لنا :
— كنتم أشجع من رأيته بتزوج تلك العروس الخشبية .

★ ★ ★

بعد شهر وصلتنا الطرود من غزة ومع كل طرد رسالة من أم أو أب أو زوجة . سجاثر واسبرين وملابس داخلية وأحذية وبيجامات وصابون . بعد ارتداء البيجامات أصبحنا شيئاً مختلفاً تماماً . منعوا عنا البنطلونات والقمصان .

أحد الرفاق حينما ارتدى بيجامته قال :

— سوف يطول نومنا في سجن مصر العمومي .
واضفت : والزنازة هي حجرة نوم الفلسطيني .

★ ★ ★

المعتقلون الذين ينسون أعياد ميلادهم في الخارج يتذكرونها دائماً في السجن . دائماً يحاول السجناء أن يفرح . وعيد الميلاد بالنسبة الى المعتقل أو السجن هو فرح زنازته . فالزنازة تقدم له علبة كاملة من السجاثر . والزنازين الأخرى تقدم هداياها : السكر والشاي .

وهكذا احتفلنا في سجن مصر العمومي بعيد ميلاد الدكتور يوسف ادريس . كان في الدور الثاني ودعائي لحضور عيد ميلاده . وحملت هدية زنازتي اليه : كانت علبة كاملة من السجاثر تحتوي على عشرين عذراء تحلم كل واحدة بعود من الكبريت .

عذراء بعد عذراء راح يوسف ادريس يدخن .

نحن دخننا الكرابيج وهو يدخن العذاري .

في أيام فيضان النيل ينتظر الصيادون في غزة على الشاطئ لكي يروا ذلك النهر من الطين الذي يشق البحر وهو يحمل سمك البوري اليهم .

مصر التي تحمل السمك للفلسطيني في غزة ، جعلوها تحمل الكرابيج له في سجن مصر العمومي .

★ ★ ★

بدأت رسائل غزة والمخيمات تصل إلينا كل خمسة عشر يوماً . سمحت المباحث والمخابرات بكتابة الرسائل . كل مخيم كان يسلم علينا جميعاً وكل رسالة كانت تختم دائماً :

— وكل المخيم يسلم عليكم كبيره وصغيره .
بدأوا يرحلون الاخوان المسلمين . في ذات يوم ذهب سيد قطب ولم يعد .

★ ★ ★

في زنزانة كان أحد المعتقلين يحكي لزنانته قصة (مارتن ايدن) للكاتب الاميركي جاك لندن . وفي زنزانة اخرى يروي مدرس آخر لزنانته قصة نسر دينستويسكي في رواية (يوميات بيت الموتى) .
مسجونون يعثرون على نسر مكسور الجناح ، يمودون به للسجن . يطعمونه لقم اللحم التي هي كل ما يملكون . النسر ظهره الى جدار العنبر ومنقاره في سقف الزنزانة . يرفض أن يلتقط بمنقاره لقم اللحم . بعد أن اشتد الهزال على النسر يخرج المسجونون من العنبر . خارج بوابة السجن يطلقونه . . يظل النسر يركض ويركض دون أن يلتفت الى الوراء حتى يختفي .
ولكنك واضح تماماً امام السجائين . في زنزانة ثالثة ، كان الرفاق يحرقون في الهواء الجريدة اليومية للحزب .
حينما تختفي معجزة اليد تظهر معجزة الفم .

★ ★ ★

انقطع اتصالنا بالحزب في تلك الفترة ، فبعد اعتقالنا اشتدت الرقابة البوليسية الى درجة مراقبة الذين يشترون الكتب والمجلات من مكاتب غزة .
من يشتري جريدة . يذهب اسمه الى اومباشي المباحث . من يشتري كتاباً يذهب اسمه الى الجاويش ، من يكتب رسالة يذهب اسمه الى ضابط المباحث ، اما من يؤلف كتاباً ، فان اسمه يذهب الى الحاكم الاداري العام .

★ ★ ★

— في سجن القناطر الخيرية سوف تعاملون معاملة افضل ؟
وخرجنا من فتحة بوابة سجن مصر العمومي واحداً بعد الآخر كما دخلنا .
والكلبشات في ايدينا الى اللوريات المغطاة التي قامت بنقلنا الى سجن القناطر الخيرية .

من سجن الى سجن بلا تأشيرة مرور .

★ ★ ★

حينما وصلنا سجن القناطر الخيرية . كل الشيوعيين المصريين كانوا في استقبالنا . ومن الدور الثالث والرابع انطلق صوتهم :
— عاش كفاح الشعب الفلسطيني .
أسكنونا في الدور الثاني .
لقد تقدم الفلسطيني درجات سلم الى الامام من الدور الارضي الى الدور الثاني .

★ ★ ★

منذ الرسالة الاولى على ورقة سجانر، أرسلها بواسطة حبل (مخري مكى) رحلت اشم رائحة ذلك الضبع . منذ ١٩٤٨ كنا نناضل من أجل وحدة الحركة الشيوعية المصرية . وفرحنا لاجلان الحزب الشيوعي المصري الموحد . وكان علي أن ابتلع كل الحجارة التي يرسلها فخري مكى عبر رسائله بالشفيرة والتي كان يترجمها لي الرفيق (س. ب) وأقول :
— يذبحون ألف دجاجة ويجمعون ريشها ولكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يزوروا ويصنعوا ديكاً يصيح . فوجئت في دورة المياه حينما طلب مني الرفيق سعد بطرس عضو المنظمة الشيوعية المصرية أن احدد موقفى تماماً فاما أكون معه أو أكون مع مئات الشيوعيين المصريين ، كان يعتقد أنهم جميعاً من البوليس . وبالطبع اتخذت قرارى مع الشيوعيين المصريين .

★ ★ ★

الآن صرنا نصنع الشاي بأيدينا . كل زنزانة تخفي قروانة . وبواسطة علبة بندورة أو علبة سردين أو علبة لحم يتم ثقبها بالمسمار ، كنا نبل قطعة من القماش بالمزوت . تشتعل الخرقعة في العلبة المثقوبة وتبدأ رائحة الشاي تعبق . هذا البوتاغاز اسمه : التوتو .

★ ★ ★

الرفاق المصريون يستضيفوننا في زنازينهم . كنا نحتال على السجانين . فالذي يهم السجان قبل اغلاق الزنزانة هو عدد المعتقلين في كل زنزانة . وكان المعتقل الفلسطيني الغائب في زنزانة أخرى كان يحل محله احد الرفاق المصريين . في كل وثائق الحزب الشيوعي المصري كان دورنا كشيوعيين فلسطينيين في قطاع غزة من أجل وحدة المنظمات الشيوعية المصرية يحتل مكانه البارز . كنا نهز ساعد العامل المصري فقتلنا ساقط الكتب .

★ ★ ★

بدأ الهواء القادم من الزنبق في شاطئ غزة . من الزنبق ومن ريش طائر
الفري ، من شجر السدر ومن شجر الخروب . من السمك الذي يلعب فوق
الرمل لعبة البمامة التي تختفي في فم الطفل . بدأ الهواء القادم من غزة يحمل
لنا أخباراً طيبة .

★ ★ ★

الحزب يقف على قدميه الآن ويبد ذراعيه الى ابعد مصباح في مركب صياد
يصطاد السمك في منتصف الليل . وكذلك كان الهواء القادم من شوارع مصر .
الهواء القادم من المصانع ومن الارض . كان يحمل أخبار انتصارات جديدة . في
سجن القناطر الخيرية احتفل الرفاق المصريون باعلان جمال عبد الناصر كسر
سلسلة احتكار السلاح . فم القاهرة على ذراع براغ . شامة القاهرة على خد
موسكو . في سجن القناطر الخيرية يرفع جمال عبد الناصر يده ويعلن تأميم
قناة السويس .

اولئك الذين هتفوا بحياة الشعب الفلسطيني لمدة خمس دقائق في الزنازين
وجلدوا عشرين جلدة ، يهتفون الآن بحياة الشعب المصري وفي الزنازين أيضاً .
كان عرساً في كل زنزانة . فالمعتقل لا يتزوج عروساً من الخشب الآن
ولكنه يتزوج امرأة اسمها : نهر النيل . الزنازين في تلك الليلة كانت تقدم الشاي
والسجائر للسجناء الذين لم يفهموا اول الامر كيف يهتف معتقل بحياة سجنائه
وهو داخل الزنزانة .

★ ★ ★

في الليل حيث لا قلم ولا ورقة يحاول المعتقل أن يكتب شيئاً ما بأصابعه في
الهواء . النجمة فوق النهر تتزوج بحاراً ولكنها فوق السجن تحب معتقلاً .
كنا ننام ونحن نحلم بمحطة السكة الحديدية في غزة . كنا نحتضن صفارة
القطار ، نحتضن عجلاته بين اذرعنا ، نضع الفم تحت راسنا ، وتحس أن
موسيقى ابعد نجمة تصل اليك :

يا سهر

انا في المنفى اغني للقطار

واغني للمحطة

اي هزه

حينما تومض في عيني غزة

صلاح خلف — ابو اياد — يزورني في سجن القناطر الخيرية . بواسطته

تم تهريب قصيدتين مكتوبتين على ورق السجائر ورسالة سياسية هامة . كل فلسطيني في تلك الايام كان يريد أن يتحول الى ساعي بريد لفلسطيني آخر . الفلسطينيون يحبون طوابع البريد ويحبون كتابة الرسائل .

★ ★ ★

الرفاق المصريون تصل لهم القصائد والرسائل المهربة . ينسخونها ويهربونها للخارج .

في يناير ١٩٥٧ ، كانت المفاجأة الكبرى . دخل أحد الرفاق المصريين الى الزنزانة وهو يلوح بكتاب في يده ، وكان ديوان شعر يتضمن القصائد التي كتبتها في الزنزانة بالاشتراك مع شعراء مصريين : زكي مراد ، محمد خليل قاسم ، محمود توفيق ، كمال عبد الحليم .

صدر الديوان بعنوان (قصائد مصرية) رسمه المصور المناضل (زهدي) واصدرته (دار الفكر) وكان الاهداء :

« الى بطل التحرر الوطني جمال عبد الناصر » .

كان هو الديوان الثاني الذي ارى فيه قصائدي مطبوعة ، ولكن هذه المرة يلقي الديوان بهراسيه كسفينة في الزنزانة .

في ذلك الوقت اتم صلاح جاهين كتابة ديوان (كلمة سلام) . قصيدة في الديوان كتبها عني وعن تظاهرات مارس ١٩٥٥ :

— يا معين يا صوت الضحايا

ارعد بصوتك معايل

ارهب عدوي وعدوك

حننتصر في النهاية

حينما مضى صلاح جاهين الى الرقابة ، طلبوا منه حذف القصيدة ، ورفض صلاح جاهين وخرج الديوان يحمل القصيدة . صلاح جاهين الجديد يطلق الرصاص على صلاح جاهين القديم .

★ ★ ★

خرج (مخري مكي) من السجن بعد ان انتهى مدة الحكم عليه . تبيل العدوان الثلاثي .

بعد تأميم قناة السويس ، وصفقة الاسلحة التشيكية ، ووثقة جمال عبد الناصر في وجه حلف بغداد ، تم العدوان الثلاثي على قطاع غزة وبورسعيد ونحن في السجن .

كان جمال عبد الناصر قد أصدر قراره باطلاق سراح الشيوعيين المصريين
.. اما نحن فالى أين نمضي بعد احتلال القطاع ...؟
ونقلونا الى عنبر آخر في سجن القناطر . كنا كمن يفرج عنه داخل
السجن . في ذلك الوقت جاء مندوب عن المخابرات المصرية ليلفنا قرار الموافقة
على الامراج عنا الى اي بلد نريده ، وكنا نعرف لعبة المخابرات وقد اتضحت هذه
اللعبة فيما بعد ، فحتى حينما حملت الجماهير في قطاع غزة سيارة الفريق (محمد
حسن عبد اللطيف) وادخلته غزة . بعد ان حطمت بيدها مؤامرة التدويل . جاء
مندوب من المخابرات ليلفنا ان لا نفكر بالمودة الى قطاع غزة ، علينا ان نختار
اي بلد للرحيل اليه .

☆☆☆

هؤلاء الذئاب لم يتعلموا شيئاً ولن يتعلموا أبداً . واعلنا الاضراب عن
الطعام واستمر الاضراب سبعة ايام حتى جاء مندوب من ادارة الحاكم الاداري
العام لمقابلتنا وطلب منا فك الاضراب على اساس الامراج عنا على دفعات
واعادتنا جميعاً الى قطاع غزة .
نديم نحوي — مسؤول الطلبة الشيوعيين الاردنيين في القاهرة في ذلك
الوقت — رفض تقديم حتى الدواء لنا :
— ولماذا تضربون عن الطعام ...؟
كان قد انتهى اقامته في القاهرة وقرر العودة الى الاردن . وحينما طلبت منه
عندما زارني في السجن ان يرسل آلة رونيو كان الحزب الذي قاد النضال ضد
الاحتلال الاسرائيلي في اشد الحاجة لها قال :
— لقد مضى عهد آلة الرونيو في قطاع غزة .
بعد ذلك بوقت استنكر نديم نحوي الشيوعية وخرج فيما بعد مع المخرب
نهمي السلفيتي في اول انقسام ضد الحزب الشيوعي الاردني .

☆☆☆

زارنا منير الرئيس رئيس بلدية غزة في ذلك الوقت وقال لنا امام السجانين
وضباط السجن :
— انتم الذين علمتموني الوطنية .
رغم موقف نديم نحوي ، فلقد كان دائماً يزورنا شيوعيون اردنيون
وفلسطينيون .
خلية شيوعية من الطلاب الفلسطينيين والاردنيين جاءت تزورنا وايديتها

مثقلة بالفاكهة والورق . كان من بين الخلية : رفيقة عمري ، صهباء البربري .

★ ★ ★

خلا السجن من كل المعتقلين السياسيين . وحدنا مع المسجونين العاديين وعشرات من اليهود تم احتجازهم خلال العدوان الثلاثي لترحيلهم الى فرنسا وايطاليا .

بعضهم كان يأتي ويسألنا لماذا نحن في سجن القناطر ؟
المخابرات تطلب منا الرحيل الى أي وطن ، وهؤلاء اليهود المحتجزون يرحلون الى وطننا رغم ارادة بعضهم .

★ ★ ★

في الصيف ياخذك القطار الى البحر ، وفي الشتاء ياخذك المطر الى الشجر ،
ومن بعيد كان يأتي إلينا صوت أحد المسجونين العاديين وهو يصرخ في الليل يحمل البشارة :

— عنبر فلسطين

كله يسمع

ما سجن أنبنى على سجين

ولا مستشفى أنبغت على مريض

أخوكم المعلم عبد الباسط عبد العال

طالع من عشرين سنة أشغال

عقبال عفدنا وعندكم يا حباب

★ ★ ★

سجين يرفع صوته بالبشارة بالنيابة عن السجين المفرج عنه ، فيعم الفرع السجن . مع الحارس الليلي نرسل تحيتنا : سكرًا وشايًا وعلبة سجائر .
علاقتنا بالمسجونين العاديين قدمت لنا الكثير ، فقد كانوا يحبوننا ويحترمونا بعد أن وقفنا معهم . أحد المسجونين العاديين كان يعمل في بيت مأمور السجن ، واكتشفت زوجة المأمور ضياع بعض الأشياء واتهمت السجين بالسرقة . ربطه مأمور السجن في عامود في ساحة القاديب . طلاه من رأسه حتى قدميه بالعسل الأسود . حداة بعد أخرى كانت تهبط وتنقر رأس السجين وترتفع في منقارها لقمة من الدم والعسل . هددنا بالاضراب إذا لم ينزل السجين من العامود ورضخت إدارة السجن . من يومها أحبنا المسجونون واطلقوا على العنبر الذي كنا نقيم فيه : عنبر فلسطين .

★ ★ ★

في تلك الايام زارني احد الرفاق وقال لي : ان شفيق الحوت كتب مقالا في رثائي في مجلة الحوادث البيروتية عام ١٩٥٦ . حول شفيق الحوت قصيدة — السيل — قصيدة من قصائد ديوان المعركة الى مسرحية قدمها على مسرح الجامعة الاميركية في بيروت . في الوقت نفسه كان عبد الكريم الكرمي — أبو سلمى — يرثيني من اذاعة دمشق .

ولكن السجن لا يبنى على سجين، ولا تبنى مستشفى على مريض فقد خرجت الدفعة الاولى من المعتقلين الفلسطينيين وتلتها الدفعة الثانية . بدأنا نحس اننا نقرب أكثر من عجالات القطار التي كنا نراها كالمطواحين نلقي فيها بأيامنا مفتدور لتخرج رغيف الوطن .

الاخبار بدأت تأتي الينا من القطاع ، اخبار الحزب الذي كان يناضل بيده ضد الديبابة الاسرائيلية .

الحزب الذي تمكن رغم كل الاسلاك الشائكة من اقامة الجبهة الوطنية في قطاع غزة . هذه الجبهة التي رفض أن ينضم اليها (بعض العقائديين ؟) بحجة ان الحزب اعلن خلال الاحتلال الاسرائيلي عن اهمية النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية .

احتاج قرار الحزب حول النضال المشترك مع القوى اليهودية التقدمية أكثر من عشرين عاماً لكي يأتي المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الاخيرة عام ١٩٧٧ ويتبنى ما قاله الحزب الشيوعي في قطاع غزة عام ١٩٥٦ .

تقارير المخابرات كانت تقول لجمال عبد الناصر : ان القطاع يتجه الى التدويل .

يعذبون الشعب ويوجهون له الاهانة . بعد التظاهرات التي اجتاحت قطاع غزة واسقطت مؤامرة التدويل ورفعت يدها تنادي جمال عبد الناصر ، ارسل جمال عبد الناصر الفريق محمد حسن عبد اللطيف كحاكم اداري عام للقطاع . وفي سلة القمامة سقط صوت المخابرات .

كانت الاخبار تأتي الينا عن عبدالله عوض الله ، وطعمة مشتهى ، المناضلين الشيوعيين المعتقلين اللذين ضربا حتى الموت من قبل البوليس الاسرائيلي ، وكان كل الذي نطق في فم كل واحد منهما هو خيط الدم الذي سال من شفثيه .

★ ★ ★

في اوائل تموز ١٩٥٧ ، صدر قرار الانراج عنا . القطار هو اجمل ما اخترعه الانسان، والفحم الحجري هو كعكة تشتهي ان تقطعها بالسكين وتأكلها بالشوكة .

★ ★ ★

تركنا وراءنا سجن القناطر الخيرية وحملنا اللوري الى محطة القاهرة .
كان الحرس من المباحث يظهرن الفرع بمودتنا ؟ ربما لثانية واحدة كل خمس
سنوات يتذكر شرطي المباحث الفلسطيني انه فلسطيني ، ولكنه بعد ذلك يمضي
في كتاب التاريخ ضد الفلسطيني .

دخلنا رنح الفلسطينية . اختلف الهواء تماماً ، اصبح يأتي من البحر مشبعاً
برائحة شجر التين وشجر الاثل وشجر الخروع .
في رنح انزلونا من القطار واركبونا أحد اللوريات الى غزة ، فوصلنا عند
العصر . اخترق اللوري شوارع غزة الخلفية حتى بلغ سراي مركز البوليس في
الرمال . من هناك ذعب كل واحد منا الى بيته .

★ ★ ★

ومضيت الى بيت عمي عاصم . صرة الشاب في يدي وكان فيها كل ما املك :
قميص وفرشاة أسنان وقطعة صابون .

اول ما دخلت حسبوني بائعاً جوالاً . لم يكن لدي ما ابيعه — خالتي وظيفية
عرفتني — فتحت ذراعها وسقطت بينهما وايقظتني في مساء اليوم التالي . تركت
باب الحجرة مفتوحاً وفنحت كل النوافذ ونمت .

كانت المرة الاولى التي انام فيها بعد عامين وشهرين من الاعتقال وهدير
البحر يصل الي .
طهر الله

الدَفْتر السَّادس

كان الحزب لا يزال ينزف من الضربة البوليسية الاسرائيلية حينما انهار عطية مقداد امام — بن كتمان — ، وقدم له الخارطة التنظيمية للحزب والجهاز الفني ، وسلمه رؤوس بعض اصديقاء الحزب الذين كان يعرفهم .
وجاء الرماق الاردنيون المنفيون من الاردن وعلى راسهم الرقيق اخري مرقة ، وفور وصولهم قدموا انفسهم للحزب وتقدمهم الحزب للجواهر .
كان اخري مرقة بيده اليمنى التي يهزها دائما حينما يتكلم ، بعينه اللتين تلمعان بحب فوق الوصف لفقراء الناس وللأشياء الصغيرة البسيطة في حياتهم .
اخري مرقة كان ينبع ماء تنجر في الحزب . وفي اللقاءات الوطنية كان صوته هو الذي يحسم مسؤولية وتواضع وحنان العديد من القضايا .
حينما كنا ننام معا في حجرة واحدة ، كان يصحو عند الخامسة تماما ، يرتدي ثيابه ويبدأ يسير في الحجرة وأمسحوا على خبطات حذائه فيعتذر ويقول :
آسف ولكن هذا ما علمتني اياه العسكرية .

كان يحب الشيخ حسن سلامة بدمه وكان فخري مرقة بالنسبة للشيخ
مثل يده وقلبه .

★ ★ ★

النضال اليومي للحزب ، كان يتجه اساساً الى تكوين الجبهة الوطنية
المتحدة العريضة ، هذه الجبهة الوطنية التي كانت تضم العشرات من الوطنيين
على اختلاف انتماءاتهم السياسية ، كانت هي القوة السياسية الرئيسية في قطاع
غزة ، والتي تصدت لقيادة النضال السياسي بعد استقاط مؤامرة التدويل وعودة
الادارة المصرية الى قطاع غزة .

كنا قد عدنا جميعاً الى مدارس الوكالة، وبالمساندة الشجاعة لخليل عويضة
.. وعدت ناظرًا لمدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين .

★ ★ ★

قررت مع صهبا البربري ، ان نعلن خطوبتنا رسمياً ، ولكن والدتها كانت
تقيم في القاهرة ، وطلبت ان اذهب اليها . انا الممنوع من السفر الا كمعتقل في
قطار . وتوسط بعض الاصدقاء لدى الحاكم الاداري العام ، فاعطتني المباحث ،
تصريحاً بالسفر لمدة ثلاثة ايام .

وسافرت للقاهرة، مصطحباً شرطي مباحث — ربما أرسلوه كشاهد زواج —
ولقد كان شكله غريباً وهو يصعد ورائي الدرج ، الى شقة والدتي خطيبتي ، وهو
يحمل باقة كبيرة من القرنفل الاحمر . . . اشتريتها فأصر على حملها . . .

شرطي مباحث ، يحمل باقة قرنفل . . . ؟

تم اعلان الخطوبة ، ووضعت الخاتم في اصبعي ، ومضينا الى مطعم صغير،
وكان المناضل العراقي نوري عبد الرزاق حسين هو الشاهد الوحيد ، كان وجوده
هو هدية الحزب الشيوعي العراقي لي .

في هذا الوقت ، صدر لي عن دار الفكر في القاهرة ملحة :

« ماردم من السنابل » :

— قد اقبلوا فلا مساومه

المجد للمقاومه . . .

كتب مقدمة الملحة الدكتور عبد العظيم انيس .

وديوان (الاردن على الصليب) :

— انا مصلوب افردي

ولعمان ونابلسن واربد

وكتب مقدمته الدكتور عبد الرحمن شقير ، ورصد ثمنه لمساندة
المعتقلين الاردنيين .

★ ★ ★

اعلنت المخابرات نجاة عن اكتشاف مؤامرة للاحاق قطاع غزة بالاردن ،
وقالت المخابرات ، ان الذي كشف المؤامرة هو : مصطفى ابو مدين . وان رأس
المؤامرة : سمدي الشوا . وانه يتصل بالملك حسين عن طريق حابس المجالي .
المخابرات تريد محاكمة سرية ولكن الحزب رفض ومعه القوى الوطنية
وطالب بمحاكمة علنية . ما دام هناك مؤامرة .
وبالفعل نمت المحاكمة العلنية في قاعة مدرسة فلسطين الثانوية الرسمية ،
وكان يرأس المحكمة العسكرية كمال المهدي حميدة . وحكم على سمدي
الشوا بالاعدام .

بعد ذلك بشهور . انتقل كمال المهدي حميدة . كمدير عام للمباحث الى
وظيفة اخرى وهي : هندسة الفارات الدمية على مدارس الوطنيين ، في حملة
اصطياد علنية لرؤوسهم .

حينما اعلنوا الجمهورية العربية المتحدة ، كنا اول من قاد التظاهرات في
قطاع غزة . تنبأ لها ولم تكن تتصور ونحن ملء الشوارع نتظاهر من اجلها ،
انه سيأتي وقت قريب . توضع فيه كل القوى الديمقراطية والوطنية والشيوعية ،
في بنين مليء بماء النار .

وكالصيد انذي يعود لا يحمل سمكاً في سلته لبيته ، ولكنه يملأ سلته بالزنبق
البري من سافى غزة . كنا نعود الى ثورة ١٤ تموز . كانت عطر الزنبق البري
الوحيد الذي يفوح وسط حقل الاناعي الذي وضعنا فيه ...
ولحسن حظ الرفيق فايز الوحيددي . انه مات مكرماً من الحزب الجماهير ،
قتل حجة الهكسوس الجدد .

★ ★ ★

بدأت الفارات الاعلامية ضد القوى الديمقراطية والشيوعية تجتاح كقطاعان
من الضاع كل شيء اخضر في الوطن العربي .

فالمباحثات بين انور السادات ومحمود امين العالم ، كمنسوب عن الحزب
الشيوعي المصري . قد فشلت . كان المطلوب من الحزب الشيوعي المصري ان
يحل نفسه - ما دام كل شيء على ما يرام .؟ ورفض محمود امين العالم ،
لا لان كل شيء على ما يرام . بل لان احدا لا يملك حق حل حزب شيوعي .

والنتيجة بالطبع كانت الفارة على الحزب الشيوعي المصري ، والقبض على أعضائه في أول يناير ١٩٥٩ .

وبدأوا يفتحون في القاهرة ، ملف الشيوعيين والديمقراطيين في قطاع غزة . الهواء ينقل بذور جوز الهند الى الضفة الاخرى في الشاطئ الآخر ، والهواء الذي ينقل البذور ، ينقل أيضاً ، بذور أصوات البلطجية . وانتقل « الصوت » صوت — احمد سعيد — الى هواء قطاع غزة .

كمال مهدي حميدة ، الذي كان يجلس في استراحته على شاطئ غزة ، والى جواره كلبه وسله مليئة بالسردين الخارج لتوه من الشبكة ، السمك الذي كان لا يزال يرتعش ، فيمسك كمال مهدي حميدة ، بالسمكة التي تكاد تنط من يده ، ويلقمها لكلبه . . .

كان — سمكة القرش — هذا ، يريد أن يفعل بنا ، ما كان يفعله بالسمك ، ان يلقمنا لامواه كل القوى الفاشية والتي كان اشدها عداً — العقائديون الفاشيون — وفلول الاخوان المسلمين .

الدم والحديد والنار ، أصبح ضد الشيوعيين والديمقراطيين ، والامة العربية الواحدة يجب ان تتوجه ضدهم :

بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

هكذا كانوا يصرخون في ساحات المدارس ، في حجرات الدراسة ، ويهدد بعض الطلاب الذين جندتهم المباحث والمخابرات — ودخلت اليهم من خلال الفم الجائع — مدرسيهم من الشيوعيين والوطنيين ، داخل حجرات الدراسة . غير ان تهديد المدرسين بواسطة بعض طلابهم لم يعد يكفي ، ولم تعد تكفي أيضاً كتابة الشعار المشؤوم فوق اللوح او فوق الحائط :

— بدنا نقول عالمكشوف

شيوعي ما بدنا نشوف

وبدأوا يستدعون المدرسين والطلاب الى مكاتب المباحث والمخابرات ، ويطلبون منهم ، اعلان استنكار الشيوعية في الجرائد . . . او في ساحات المدارس امام الطلاب ؟

في الباص ، او في التاكسي ، كان يتبعك دائماً احد المباحث ، يأخذ مكانه الى جانبك او الى جانب السائق ، او احد الركاب ، ويرفع صوته بلا مناسبة :

— لقد القوا القبض على احد الشيوعيين وهو يحاول ان ينسف تمثال الجندي المجهول . . . ؟

ثم يلتفت اليك وامام ركاب التاكسي او الباص ويسالك ، وعيناه تكادان تلدغان وجهك :

— هل انت شيوعي ...؟

وتكتم البسقة ، وتهبط من الباص او التاكسي ، ولكنه يهبط ويمضي ورامك... كل هذا الجراد الذي انطلق من آذانهم وعيونهم وانواهم لم تكن له نتيجة ، كان عضا في الهواء .

واتخذوا اسلوبا جديدا غريبا ، لم تكن تعرفه المدارس في تاريخها . فجأة ... تكسر بوابة مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ، مجموعة تحمل الحجارة واغصان الخروج ، وتقتحم ساحة المدرسة وهي تصرخ :
— يسقط عبد الكريم قاسم .

ولماذا يهتف بسقوط قائد ثورة ، في مدرسة تحمل اسم صلاح الدين الايوبي؟ . جاني البواب — ابو سليم — . وبعض المدرسين . اتضحت المؤامرة تماما ، مصدرت على الفور قرارا للمدرسين باغلاق حجرات المدرسة على الطلاب ، ومنعهم من الخروج .

كان بعض المباحث مع التظاهرة . وبعض الطلاب من مدرسة الزيتون الاعدادية للاجئين . انني انطلقت منها تلك المجموعة من الطلاب ، فانضم اليهم عند بوابة المدرسة شرطة المباحث والمخابرات وبعض العقائديين والاخوان المسلمين وتادوهم الى مدرسة صلاح الدين الاعدادية . الى مدرسة (الكباش الشيوعي) . كانت المباحث والمخابرات تريد باي ثمن ان يشتبك (المتظاهرون) مع الطلاب . ويشرف شرطة المباحث والمخابرات مذبحتهم .

دخلت مكنتي . واغلق (ابو سليم) باب المكتب . ووقف امامه . ووقف معه بعض المدرسين .

وذات الحجارة تنهال على نوافذ مكنتي ... فتحطمت ... وتجمعوا حول النافذه وعم يلوحون بالعصي . ويصرخون :

— احرق معنا بسقوط عبد الكريم قاسم .

وبكسروا الباب ويدخلون .

بنوقفون امام باب المكتب ولم يكونوا يدرون ما هي خطتهم المقبلة .

امام ترددهم الذي دام لحظات خرجت بهدوء من بينهم ... فتبعوني الى الساحة ... وحملني احدهم على كتفيه ، بينما صاح آخر :

— احرق بسقوط عبد الكريم قاسم .

— احرق بسقوط الشيوعية .

قبل أربع سنوات ، كنت مرفوعاً فوق كتفين ... يسقط الرفيق حسني بلال لينقذني من الرصاص ... قبل أربع سنوات .
ويستمجنني أحدهم :

— لماذا لا تهتف بسقوط الشيوعية ، وسقوط عبد الكريم تاسم ... ؟
شرطي مباحث يفتح في أذن أحد الطلاب ، ويبلغني الفحيح :

— انه شيوعي ...

الموقف يزداد سوءاً ... وصرخات طلابي تشق زجاج النوافذ وتصل الي كططرات الندى ، كتيار من النسيم .

كانت الجريمة فوق أطراف عصيهم ... وفوق طوب الترميد الذي يحملونه ... وفي عيونهم الزجاجية . ويضيق على الجنزير الذي ضربه حولي .

وفجأة ، يخرج شرطي المباحث مسدسه ، ويطلق رصاصة فوق رأسي ، كانت لديه تعليماته وكانت الرصاصة اشارة بدء الهجوم علي .

فوجيء المتظاهرون ، بطلقة المسدس ، وانفتحت ثغرة في الدائرة ، كانت تكفي لكي اندفع منها وانطلق أركض بكل قواي .

فوجئوا بهروبي ، وفوجئت الشرطة ، وما أسرع ما انطلقوا ورائي وهم يقذفونني بالحجارة ويصرخون :

— امسكوه ...

ولكنني كنت قد بلغت البوابة ، واندفعت منها الى الشارع ، ودخلت باب اول بيت وجدته مفتوحا واغلقت الباب ورائي ... كنت اسمع صراخهم وهم

يقتربون من البيت ، وكان بيت الطبيب — صالح مطر — وأنا مدين لهذا الرجل الطبيب بحياتي — وسلام عليه اينما كان . فحينما بدا (المتظاهرون) ، يقذفون

نوافذ البيت بالحجارة ، ويحطمون الزجاج ويدقون بعصيهم على الباب ، حمل كل ما يمكن حمله هو وزوجته ووضعاه خلف الباب الذي راح يهتز تحت ضربات

العصي وتضبان الحديد . طلب الي ان اصعد الى الدور الثاني .

— لو اقتحموا الباب تستطيع أن تهرب من فوق السطح . سطوح البيوت في

حارة الدرج ، ملتصقة ببعضها البعض ، وكأنها سقف بيت واحد .

وراح الدكتور — صالح مطر — يتصل بالمسؤولين ... كانوا يعرفون انني في بيته ، فلم يردوا عليه الا بعد ساعة ، وظنوا ان « متظاهريهم » تمكنوا

من اقتحام البيت والاجهاز علي .

ولكن خروج الجيران من بيوتهم ، ومنظر شرطة المباحث والمخابرات بين هذه الجوقة من المتظاهرين ، جعلت شرطة المباحث والمخابرات تبتعد كأنها

ترقب ، وترددت الجوقة .
 فوجيء كامل حسين قائد المخابرات بالدكتور صالح مطر ، وهو يبلغه انني في
 بيته ، وهناك متظاهرون يريدون كسر الباب ، وكان اول سؤال يسأله كامل حسين :
 — هل هو بخير ؟
 وكان جواب الدكتور صالح مطر :
 — انه لم يصب حتى بخدش .
 ولم يكن يعرف أن هذه الجملة قد ازعجت قائد المخابرات كثير ؟
 — لم يكن يريدني مخدوشا ، ولكنه كان يريدني جثة .
 وأرسل كامل حسين أحد ضباطه (سعيد يحيى) — هذا الضابط فيما بعد
 قامر بتقود المخابرات وزور شيكات ... وطرده — وجاء الى بيت الدكتور
 صالح مطر ، لاصطحابي الى مكتبه .
 الضابط وصل . واختفى المتظاهرون في غمضة عين .
 وأخذ يتفحصني بعينه :
 — كيف ، انك لم تصب حتى بحجر ؟ ...
 وأركبني الى جانبه في سيارته وهو يقول :
 — لن نمر بالشارع الرئيسي ، انك تعرف لماذا ؟ ...
 وكنت أعرف أن ضابط المخابرات ، أصبح يهددني بالجواهر ...
 أول ما وصلت مكتب قائد المخابرات صاح :
 — لقد انتهيت .
 ويتردد كامل حسين لحظات قبل أن يقول :
 — اسبح ، هذه المرة انلت ، في المرة القادمة لن تغلت .
 ونظر الى الراديو فوق مكتبه وقال :
 — انني اتلقى تعليماتي من الراديو .
 وكان راديو القاهرة ، في كل نشراته الاخبارية ، يعلن عن اصطيات
 الشيوعيين في الشوارع .
 — اذهب الى بيتك ، ولا تخرج ابداً ، يمكن أن استدعيك في أية لحظة .

★ ★ ★

أمام بيت عمي عاصم . حيث كنت أقيم ، رابط شرطي مباحث ، وشرطي
 مخابرات ، كان كل واحد يراقب الآخر . وهما معا يراقبانني .
 بعد الغروب — كانت خالتي — (وظيفة) تغلق الباب ، وتضع وراء طاولة

ضخمة . وترقد فوق كرسي الى جوار التليفون امام باب حجرتي حتى الصباح .
 وكنت اجلس مع عمي عاصم ، كل واحد منا ينظر الى الآخر ولا يتكلم .
 في اليوم التالي ، انتقلت الغارة من مدرسة صلاح الدين الاعدادية للاجئين ،
 الى كافة مدارس القطاع ، ووصلت الى مدارس البنات أيضاً .
 بعض الطالبات والمدربات ، في مدرسة الزهراء الثانوية الرسمية ، وصل
 الصوت اليهن أيضاً ، فتفادين لجر مدرساتهن من ضفائرهن .
 ضربن دائرة حول صهباء البربري ورهن يهتن بسقوط الشيوعية .
 غزة التي ترتفع حجارة بيوتها بين كتفي زيتونة ، غزة الصدفة التي كانت
 تاوي اليها السفن الآتية من كل البحار ، غزة التي كان لاهلها دائماً عرسهم
 الواحد وجنازتهم الواحدة ، غزة التي كانت تفرش الزنبق والريحان تحت اقدام
 علمائها ، وشعرائها وتحترم الكتاب ، كما تحترم قرص الشمس . حولها في
 يناير وفبراير ومارس وابريل ١٩٥٩ ، الى اسطبل للسكاكين ومسدسات المباحث
 وهرافات المخابرات والاخوان المسلمين والشوفينيين . وجعلوا بعض الطلاب
 يبعثون على ايدي مدرسيهم الذين علموهم بتلك الايدي .
 من مدرسة صلاح الدين ومدرسة الزهراء ، انتقلت مكبرات الصوت
 الشوفينية - البولييسية الى مدرسة النصيرات حيث تم حصار الرفيق عبدالرحمن
 عوض الله ، الذي كان منقسماً على الحزب في تلك المرحلة ، ومن مدرسة
 النصيرات الى مدرسة رفح : عبد الله زقوت ومحمد أبو حمدة ، وبعدها انتقلت
 العصي الى مدرسة خان يونس : محمد الشامي .

★ ★ ★

الكرنفال بالملابس العادية ضد الشيوعيين والوطنيين ، من أجل أن تستكمل
 المذبحة كل تضاريس وجهها القبيح . كان لا بد من تظاهرة خاصة جداً ، يقوم بها
 الاخوان المسلمون في شوارع غزة .
 فور انطلاق الحملة الصليبية . استولى الاخوان المسلمون على المآذن في
 غزة وخان يونس ورفح ودير البلح .
 صعد احدثهم درج المنذنة وفوقها : بدل أن يصيح الله اكبر ، راح يصرخ :
 — تسقط الشيوعية .

★ ★ ★

ذات يوم مشؤوم من ابريل ١٩٥٩ ، رفعوا المصاحف فوق ايديهم ، المصاحف
 التي لم يرفعوها ابداً ضد حلف بغداد . ولا في مواجهة الاحتلال الاسرائيلي ، لم

يرفعوها من اجل عودة الادارة المصرية لقطاع غزة . ولا من اجل الجمهورية العربية المتحدة . ولا ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق .

ها هم يرفعون المصاحف في ايديهم الآن ويصرخون :

— قرآنكم في خطر ، تسقط الشيوعية .

والقرآن لا يكون في خطر . الا حينما يرفعه هؤلاء : الذين قبلوا أن يدخلوا بمصاحفهم ، الحجرة النجسة : لمدير المباحث ومدير المخابرات ، حيث قام الجهاز أن بتنظيم تظاهرة حملة المصاحف في شوارع غزة . واقتربت المؤامرة من دورها النهائي .

استدعت ادارة الحاكم الاداري العام لقطاع غزة ، المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين : خليل عويضة . وقدمت له قائمة بأسماء المدرسين في الوكالة ، والذين يجب طردهم من المدارس ، حتى تتوقف التظاهرات ... ؟

ورفض خليل عويضة ، أن يوقع على حد السكين . ولم يكتف بهذا الرفض ، بل طالب المسؤولين بحماية المدارس من حجارة البلطجية . وحمل لادارة الحاكم الاداري العام مسؤولية المحافظة على النظام .

وخرج خليل عويضة ، واضيف اسمه الى قائمة المطلوب طردهم واعتقالهم .

★ ★ ★

انت محاصر في حجرتك . عيون المباحث والمخابرات مصوبة اليك كفوهات المسدسات . يأتي اليك صوت البحر نتذهب اليه .

البحر دائماً يضع (طاقية الاخفاء) . على رأس المطارد ويخفيه عن العيون . وكنت امضي الى البحر . اتذكر وأنا في العاشرة من عمري ، حينما كنا نمضي ايام الصيف على شاطئ البحر في خيمة . كنت أتبع شبكات الصيادين ... يقعدون فوق ركبهم على شط البحر . والشبكة تتهدل فوق أذرعهم ، وينظرون للبحر . وأخذ مكاني الى جانب الصياد ، وانظر أنا الآخر الى البحر . فجأة تلمع قوالب الفضة المخضبة بعروق الذهب في الموجة . وينهض الصياد ... يمضي في الماء حتى وسطه ... وهو يرفع شبكته ثم يفردها ...

ويسحبها ويعود بها الى الشاطئ ... مثقلة بفضة البحر ...

★ ★ ★

ذات يوم قررت أن أكون صياداً . وبعد الحاج ، اشترت لي خالتي (مريم) شبكة صغيرة . ولم اكتف بالشبكة ، فطالبت بنوب الصياد ، وبالحبل الذي يلفه حول وسطه . فيصبح للصياد ذلك « العب » ، الذي يضع فيه السمك .

ولبست ثوب الكتان ، وحزمت وسطي بقطعة حبل ، ومضيت بالشبكة . طال انتظاري وأنا انظر الى البحر ولم تلمع قوالب الفضة في الموج . وبقيت في مكاني ، حتى بدأت الشمس تسقط في البحر . كان يعز علي أن أعود هكذا الى خيمتنا وعبي فارغ

مر أحد الصيادين ، كان يعرف عائلتي ، نظر الى الشبكة كانت نائفة تماماً ، ولم يتكلم . أخرج ثلاث سمكات من عبه ، ووضعها في عبي ، وابتسم ومضى القيت الشبكة في الماء لتبتل ووضعت فيها بعض عشب البحر ، ومضيت اركض الى الخيمة يا الله

لا حد للمقاومة التي تعطيها لك الطفولة التي تنفوح منها رائحة البحر . ولكن عملية الصيد الكبرى ، تم تنفيذها في منتصف ليل ٢٣ — ٢٤ ابريل ١٩٥٩ . عند منتصف الليل تماماً . طوقوا الباب ، ورفضت خالتي (وظيفة) أن تفتح . صاحت من وراء الباب وهي لا تدري ماذا تقول :

— عودوا في الصباح . . . ؟

وبدأوا يدقون الباب بكموب بنادقهم .

وتقدمت منها :

— لا مائدة . . . لا بد أن نفتح الباب ، ونعرف ماذا يريدون .

كنت اعرف تماماً ماذا يريدون

وفتح عمي الباب . فاندفعوا منه . كانوا جنوداً في ثياب الميدان ، الخوذات الفولاذية تغطي رؤوسهم ، والبنادق في ايديهم ، ضابطهم كان يشهر مسدساً . كانوا كمن يقتحمون كيبوتسا .

من هول المنظر ، سقطت خالتي فوق الارض ، ومنعوني من الوصول اليها . احاطوا بي وطلبوا مني الخروج معهم .

كان عمي قد سقط الى جانبها وصرخت :

— اطلب الدكتور حيدر عبد الشافي فوراً .

ولكن احد الجنود ، اقتلع التليفون من مكانه فوق الطاولة ، والتي به فوق البلاط نحطلم .

وماتت خالتي (وظيفة) وأنا لا ازال عند باب البيت ، لم اركب الجيب العسكري بعد . ماتت بالذبحه الصدرية .

وحينما أسرع الدكتور حيدر عبد الشافي ، بعد أن كلمه عمي عاصم من تليفون الجيران . كان قلبها قد توقف . . . هذا القلب الذي كان طول الوقت ،

طائر النورس الذي يعرف فوق رأسي في زنازني في السجن الحربي في القاهرة ،
 فلما كان حمزة البسيوني يصرخ :
 - استنكر الشيوعية .
 كان صوت قلب خالتي - حيث تركته ملقى فوق البازل - يطغى على صوت
 حمزة البسيوني ويدق :
 - لا تدعهم يقتلونى مرة ثانية بالذبحه الصدرية .
 ولم امكثهم من قتلها مرة ثانية ...
 في ٢٧ / ٤ / ١٩٥٩ ، اي بعد اعقالي بثلاثة ايام ، تم طرد ابي وامى
 واخوتي من الكويت ... مع العشرات من المدرسين والموظفين ...
 وهكذا قتلوا خالتي ، وطرّدوا اسرتي ، واعتقلوا خطيبي - واعتقلوني .

الدَفْتر السَّابِع

مستطيلات ومربعات من الطوب الاصفر ، يحيط بها سور من الطوب نفسه . . . وفي كل زاوية من زوايا السور ، يرتفع برج (الطابية) يشبه المئذنة ، وفوقها يقف طول الليل حارس ، يراقب ساحة السجن والسور يصرخ في صوت ممطوط :

— نمرة واحد تمام .

ويجيبه صوت الحارس في الطابية الثانية :

— نمرة ٢ تمام .

وينتقل الصوت من الطابية الثانية الى الطابية الثالثة والرابعة . ويستمر الزعيق حتى الفجر .

من تلك البوابة - دخل اللوري المغطى الى ساحة السجن الحربي ، وكان تحت مظلته المعتقلون الفلسطينيون من قطاع غزة .

هبطنا من اللوري واحدا بعد الآخر . كانوا مستعدين لاستقبالنا . احاط بنا

حرس السجن الحربي وثلاثة كلاب — عرفنا فيما بعد انهما كلبتان : « جولدا » و « عنايات » ، وكلب يدعى : « لافي » ؟
— حظاً سعيداً في السجن الحربي .

★ ★ ★

اثنين ... اثنين ... اوقفونا في طابور . رميتني في الصف الاول كان خليل عويضة : المشرف العام على التعليم بمدارس اللاجئين . وورائي كان نائبه : مريد أبو وردة ... وفي آخر الطابور كانت صهباء البربري — كانت أول فلسطينية ومصرية تدخل السجن الحربي .
— انتباه ...

يصرخ قائد الحرس ، كان بـتة جاويش ، نحيلاً كالكرج ، وجهه طويل حاد كالناب ، ولكن الحرس ناثوا نادونه : حضرة الصول ؟ ... بدأت دورة لافي وجولدا وعنايات حولنا اكتفى الكلب والكلبتان بشمها هذه المرة .
— انتباه ...

لا تدري ماذا تفعل ، ولكنك تنتبه .
— ضم القدمين . لا تلتفت . انظر الى الامام .
وننظر الى الامام .

★ ★ ★

كان بعض الجنود يركضون في دائرة في ساحة السجن ، وكل جندي قد علق حذاءه في عنقه . وهكذا كانوا يؤدبون الجنود الذين « يشاغبون » ، يركضون حفاة ، وأحذيتهم معلقة في رقابهم ... ؟

ان حزيران ١٩٦٧ ، يقدم أوراق اعتماده كسفير فوق العادة .
ويظهر — حمزة البسيوني — قائد السجن الحربي ، تهنيخ الكلبتان ، ويندفع اليه لافي ، فيقفز فوق ركبتيه . يتحول الحرس نور ظهوره الى أعمدة من الطوب الاسفر — حتى جلد السجائين في السجن الحربي يأخذ مع مرور الايام ، لون طوب السجن .

يتقدم « الصول » أمين منه :
— تمام يا جناب الباشا .

ويتقدم « جناب باشا » من الطابور ، طويلاً ممثلاً ، عريض الكتفين ، أشقر الشعر ، بعينين زرقاوين — للجلادين أيضاً عيون زرقاء — .
يستعرضنا — حمزة البسيوني — . يفحصنا بعينيه ، كأنه يشمنا ، يتوقف

عند صهبا البريزي ويصيح :
 — ماذا تفعلين ... بينهم ؟...
 — اسال الذين اعتقلوني .
 — انني لا احتفظ بنساء في السجن الحربي ... ؟
 ولكنه احتفظ بصهبا البريزي اربعة اشهر في زنزانة انفرادية .
 — انتباه ...
 وننتبه . ننظر الى الامام . وما يزال طابور الجنود . يدور . والاحذية ما زالت
 تتدلى من رقابهم . ونفاجىء بوجود حديقة كبيرة في مواجهه مكتب حمزة البسبوني .
 لماذا يحتاج هذا الجلاد الى حديقة — وسط هذه السلخانة — ... ولكنها
 كانت حديقة بلا عمامير . فالحداة وحدها هي التي تخلق في نساء السجن
 الحربي . في وقت توزيع التعيين — عشاء المسجونين — ويحل السجانون
 جرادل اللحم ، تنقض الحداة : تلقم قطعة لحم من الجردل وترتفع بها .
 ولا يتحرك السجان :
 — انها تتناول عشاءها هي الاخرى .
 صورة ستظل ملتصقة ابدًا في عيوننا .

★ ★ ★

أحد المعتقلين الشيوعيين كان من المجندين المصريين في الجيش — كانوا قد
 ضربوه على راسه حتى شقوه — . فراحوا يعالجونه بصبغ جرح راسه
 " بالميكروكروم الاحمر " بقطولاً يربطون الجرح .
 — ولماذا الشاش ... ؟
 أجل ولماذا الشاش ، مرة كان المتطوع عائداً الى العنبر مع سجنائه : جرح
 راسه مفتوح ، الميكروكروم الاحمر ... يصبغ راسه ، انقضت حداة ، فوق رأس
 المعتقل ، ضربته بمنقارها وارتفعت ، ورفع السجان كرابجه تحية لها .
 — قدم لهم عشاء جيداً يا « امين » . انهم غيوف .
 وكانوا قد اعدوا لنا ، مائدة تليق بضيوف فلسطينيين . فما ان دخلنا
 بوابة العنبر — الذي خصص لنا — واغلق الباب الحديد وراعنا حنسى بدأت
 حفلة العشاء ... ؟
 انهار السجانون فوق رؤوسنا بالكرابيج ، وعلى راسهم « الصول امين » .
 هاجت الكلبتان جولدا وعنايات ، من صوت الكرابيج المختلطة بصرخاتنا ،
 وجن الكلب لآكي .

قمعدنا فوق ركبتنا على الارض ، رأس كل واحد منا بين يديه ، وعليه أن لا يرفع عينيه أبداً عن حذاءه . خلع كل واحد منا حذاءه ، ووضعته بين ركبتيه ، عليك أن لا تلتفت الى الورا أو الى اليمين أو الى اليسار .

★ ★ ★

ماكينة حلقة في يد السجن حلفت آلاف الرؤوس قبلنا ، قد حفيت أمواسها تماماً ، فكانت تقتلع شعرنا خلا خلا . . . وتمزق جلود رؤوسنا . الماكينة في رأسك ، والكراباج فوق ظهرك ، والدم يسيل من جلد رأسك . . . وفوق عينيك ، ولا تستطيع رفع يدك ، حتى لمسح دمك عن وجهك .
بعد عملية سلخ الرأس ، يتقدم كل معتقل من طاولة خشبية وراءها سجان — يعرف الكتابة والقراءة — ربما علموه الأبجدية لهذا الغرض فقط .
— وضع كل شيء على الطاولة ، كل شيء .

★ ★ ★

الساعة والخاتم . . . جنيتها أو اثنين ، من كان معه منديلا ، وضع أشياءه فيه ، ومن لم يكن يملك منديلا كوما فوق الطاولة .
وتبدأ عملية الاستجواب :
— اسمك .
— خ. ش.
ويستطاع الآياج فوق وجهه :
— قول أفندم يا ابن الكلب .
وبعد أن تقول اسمك وبعدها كلمة « أفندم » ، يسمط كراباج آخر .
— بتشتغل آيه . . . ؟
● مدرس يا « أفندم » .
وترتفع صرخة السجن :
— مدرس . . . ؟ يعني شيوعي يا ابن الكلب .
وتستط الكراباج ، وتنقض عليك الكلبة « جولدا » .

★ ★ ★

ينتهي استجواب المعتقل الاول ، نيدفعه ، سجانان ، يرافقهما الكلب لآكي ، يطلب منه أن يركض ، وهما وراءه بالكراباجين وبأنياب الكلب لآكي ، حتى باب زنزانته .
— اسمك . وبشتغل آيه . . . ؟

- طالب يا « انندم » .
- طالب ... ؟ يعني شيوعي ... يا ابن الكلب ... شيوعي كمان .
- اسمك .
- عبد المجيد كحيل يا « انندم » .
- بتشتغل ايه ... ؟
- بائع خضار يا « انندم » .
- ويقف السجان ، ويكفه المشحوزة كالكسين . يلطم عبد المجيد كحيل فوق وجهه وهو يصرخ :
- بائع خضار يا ابن الكلب . بنعمل ايه بين المدرسين والطلاب ...
- بنعلمهم الشيوعية ... ؟
- وينهال عليه السجانون بكرابيجهم . حتى يسقط فوق الارض ...
- (لابن بائع الخضار — عبدالمجيد كحيل — ولد يتعلم في جامعة موسكو الآن) .

★ ★ ★

هكذا سكتا الدور الثاني والاخير في عنبر « ج » في السجن الحربي . كل معتقل في زنزانة انفرادية . لا يعرف من المعتقل في الزنزانة الى يمينه او الى يساره .

★ ★ ★

عرفت بعد عشرة ايام ، ان على يميني كان (خ . ش) وعلى يساري : فريد ابو وردة . لقد رايت احد السجانين يمسح يده فوق حائط زنزانتني وكانت مصبوغة بده فريد ابو وردة .

طلبوا منا ، خلع قمصاننا ، ورفع ايدينا ووضعها فوق الحائط . فور ان يسقط الكرياج فوق ظهرك . يقفز الكلب لاي . حتى يصل الى كتفيك . . . ويعضك . . . في الكرياج الثاني يعضك من ظهرك . . . وفي الكرياج الثالث من ساقيك . دربوه على العض دون ان تسيل قطرة من الدم . يمتلىء جسد المعتقل بالاتياب ، فلا يستطيع النوم ، وهذا هو المطلوب تماما .

تقف في زاوية من الزنزانة : لقد طلب منك السجان ان تظل واقفا . يغلق الباب ، لكي تصل اليك الصرخات من الزنازين الاخرى . مختلطة بعواء الجوقة : لاي وجولدا وعنايات .

الزنزانة خالية تماما . كل الاثاث . هو جردل البول . وبلا غطاء . اثاث

★ ★ ★

الزنزانة هو المعتقل نفسه .

من ناظور الزنزانة ، يطل السجان ويصرخ :

— انت واقف يا ابن الكلب . اقعد .

تقعد .

— انت قاعد يا ابن الكلب . تف .

تقف .

— انت نايم يا ابن الكلب . اصح .

وتصحو .

— انت صاحي يا ابن الكلب . نم .

تنام .

هكذا تقف وتقعد . تقعد وتقف . تنمض عينيك وتصحو . وتنمض عينيك حتى الخامسة صباحا . حينما يفتح السجان باب الزنزانة قليلا ، فتهد يدك وتتناول « القروانة » . وفوقها رغيف ، ويفلق باب الزنزانة .

★ ★ ★

تلتهم الرغيف وحبات الفول الموس ، وتحس بالعطش . . . ولكن كوب الماء يأتي بعد ساعتين ، او ثلاث ساعات او لا يأتي على حسب مزاج السجان .

★ ★ ★

رائحة البول تملأ الزنزانة . تريد ان تفعل شيئا ، فتبدأ في استكشاف جدران الزنزانة وبابها الحديدي . هذه هي جزيرة الفلسطينيين : لربع شجرات من الطوب الاصفر المدهونة بالشيد الابيض ، والسماء هي باب الحديد . بعض الاسماء فوق الجدران . بعض صور الطيور والراكب وتواريخ الدخول الى السجن الحربي . تفتش في الحيطان الاربعة على تاريخ خروج واحد ، فلا تجد .

انك في السجن الحربي .

في اليوم السابع ، سمحوا لنا باخراج جردل البول . كان قد امتلا ، ولم نعد نستطيع النوم من التعذيب المتواصل ومن رائحة البول .

★ ★ ★

عرفنا فيما بعد ، ان اخراج جردل البول ، وتقديم الماء لنا ، ثلاثة اكواب كل يوم . كان بفضل فلسطينيين من قطاع غزة : الحاج محمد ابو دقة — كان تاجر

حشيش، وتاب . وارغمه بعض ضباط المباحث والمخابرات على العودة الى مهنته القديمة ، وحينما رفض - اعتقلوه - . والثاني كان : محمود أبو حصيرة - رئيس ميناء غزة - اكتشف تلاعب المباحث وبعض ضباط الادارة وبعض التجار بأوراق الجبرك ، وعمليات التهريب ، ولما تكلم ، اعتقلوه هو الآخر .

لقد دفع الاثنان لحرس السجن والضابط العنبر ولحمزة البسيوني مبالغ كبيرة ، لكي يوتلوا عملية التعذيب ، ويرفعوا عنا الكراييج والكلاب .

بعد الدفع خف الضرب قليلا . وصار الماء يجيئنا كوباً مع الغذاء ، وكوباً آخر عند العشاء . ولكن الضرب يشتد ، حينما كان ضابط العنبر ، يقوم بزيارتنا ، وكان على الحاج محمد أبو دقة ، ومحمود أبو حصيرة ، أن يدفعوا الكثير للضابط ، لكي يخفض النظر عن تعذيبنا ولو لايام .

لقد بلغ بعضنا حافة الموت . أكثر من اسبوعين متواصلين من النجوى واليقظة الدائمة والتعذيب .

« بنيامين » يهودي ، هرب من اسرائيل ، ولجأ الى مصر ، فاعتقلته المخابرات ، ووضعت في السجن الحربي .

قال لي :

— انه كان يريد أن يرى « الاهرام » ، و « أبو الهول » فآذا به يرى كعب يعذب الفلسطينيين حتى الموت .

كان بنيامين يوزع علينا الماء .

— اشرب . . .

وحتى آخر قطرة ، تشرب كوب الماء . . . تقدم له الكوب بامتنان ، ويرفض أن تقول له « أفندم » .

— انني معتقل مثلكم .

ويقدم كوباً آخر من الماء وهو يقول :

— رشف وجهك . . .

وترش وجهك بالماء ، لأول مرة منذ اسبوعين .

ويخرج بنيامين من جيبه سيجارة ، ويشعلها ويقدمها لي :

— دخن . . .

رائحة دخان السيجارة ملء الهواء . . . ويفلق الباب — العبور العظيم — نريد أن نحمي من الهواء طرفها المشتعل ، حتى يرموش عينيك ، بعد اسبوعين تدخل هذه العروس زنزانتك ، العروس ذات التاج من النار . ولكن بعد النفس الاول ، تحس بأن كل شيء يدور حولك . الحيطان والباب وجسدك أخذ ينتفض ،

تمسك بالحائط ، وتجلس في ركن الزنزانة ، تلفك سحابة ، الغيبوبة اللذيذة ...
التي تجعلك تعيش خارج الزنزانة ... تحبس بنشوة عارمة ... كأنك تضع كل
البرق في كأسك وتشربه ، كما يقول العزيز « بابلو نيرودا » .

★ ★ ★

سمحوا لنا أخيراً وفي اليوم الثلاثين ، من وجودنا في السجن الحربي ، بأن
نحمل جرادل البول ونذهب للمراحيض . نفرغ الجرادل ونفعلها ...
كانت المسافة أقل من عشرين متراً ، بين الزنازين ودورة المياه ، ولكننا
صرنا نمشي .
في السجن الحربي عليك أن تنسى قدميك ويديك وعينيك واسمك . فانت
رقم الزنزانة التي تسكنها .
— تتذكر .

كان يوم اعتقالنا هو آخر يوم لالغاء العملة المصرية من فئة الخمسين والمائة
جنيه ، ومع شرطة المباحث كانت أوراق بنكنوت المخابرات والمباحث والتجار .

★ ★ ★

ضابط مصري . حارب في بورسعيد ، وحينما لم يعد لديه ذخيرة راح يوزع
المنشورات ، واعتقلوه . ما دام ضابطاً يصر قيمة المنشورات ، فلا بد أن يكون
شيوعياً ... دائماً ترتبط الشيوعية بالنسبة لهم « بالورق » وهكذا اعتقلوه .
و حينما عرف بوجودنا ، طلب زيارتنا ، ووافق الحرس والصول (أمين) . « منير
موافي » . الضابط المصري ، هو ضابط ، رغم أنه معتقل .
شكراً للبيروقراطية ...

« منير موافي » ، أحضر معه : « الها عجبيا » ، حينما جاء لزيارتنا :
راديو ترانزستور .

واجتمعنا في زنزانة : خليل عويضة .

صوت أحمد سعيد يرتفع :

— معتقلون فلسطينيون في محس يا إذاعة ١٤ تموز ١٩٥٨ ؟ يا إذاعة
عبد الكريم قاسم ... اسمعوا أيها العرب ... اسمعوا ... مصر تعتقل
الفلسطينيين ... اسمعوا ... ؟!

★ ★ ★

وموسيقى حماسية ترتفع ... وقد يقتنع الملايين من عرب « صوت العرب »
بواسطة الموسيقى والانشيد بأنه لا يوجد معتقل فلسطيني في السجن الحربي ،

الا اننا كنا في زنزانة ، ونعرف جيداً اننا معتقلون .
يصرخ خليل عويضة :

— كذاب ... كذاب ... لا بد ان يقدم للمحاكمة ... نحن هنا ...
ولكن من يقدم العواء للمحاكمة يا عزيزي خليل عويضة ... ؟

★ ★ ★

في اليوم الثامن والثلاثين رايت الهواء ، رايت وامسكت به ، رايت الشمس ،
فاخفيت وجهي بين يدي .. لقد طلعت وغابت بعيداً عنا .. لايام طويلة .
السجان يدفعني امامه لمكتب حمزة البسيوني وهو يقول :
— حذار ان ترفع عينيك للشمس دفعة واحدة ...

وضعت في قديمي ، حذائي ... ومضيت ... وبعد ما يقرب من اربعين
يوماً ، ينمو شعرك قليلاً ... ولكن وجهك ، يصبح لا ملوى له ابداً ... انك
تمشي به ، متشرداً ، طول الوقت . وحينما تضعه في حقيبتك — تضع وجهك — مع
القميص والجوارب وبعض الاوراق — يقولون :
— انك جاسوس او مهرب .

كنت اهرب وجهي دائماً . وبمقاييسهم كنت عميلاً . استخدم — راديو
ترانزستور — يقول لي : انني لم اعتقل ابداً ، ولم يطردهوا امي وابي واخوتي ،
ولم يجرؤوا عروسي للسجن الحربي ...

★ ★ ★

بواسطة قريب لوالدة صهبا البريري ، سمحوا لها بزيارتنا ... ولم تكذب
تعرّفنا ... لقد نقص وزننا كثيراً ، منها عرفت انهم طردوا امي وابي واخوتي .
فسافروا الى الاردن . والذي اتصل بها وقال انه سيحضر للقاهرة للبحث عني .
لم تكن تعرف في ذلك الوقت أين نحن . لم يعترفوا اننا في السجن الحربي
الا بعد شهرين .

★ ★ ★

الفرحة كانت في السجائر التي حملتها معها ، سمح الضابط ، بعد ان اخذت
منه والدة صهبا البريري : تليفون بيته وعنوانه ... ؟ بأن احمل السجائر الى
المنبر ، وفوق السجائر كانت علبة كبريت كاملة ... كنا نقسم عود الكبريت
الى قسمين .

★ ★ ★

الزيارة في مكتت ضابط السجن ، جعلت السجان يغير سلوكه معي ...

حينما طلبت منه ، ان يسمح لي بتوزيع السجائر على المعتقلين ، لم يتردد ، وأول زناينة دخلتها ، كانت زناينة — خليل عويضة — لم يدخن منذ ثمانية وثلاثين يوماً .

★ ★ ★

ودخن العنبر في ذلك اليوم . وكان السماح بالتدخين بشارة كبرى . بعد أيام صار ضابط السجن ينادي — خليل عويضة — استاذ خليل — واستاذ فريد . ولم تقترب منا الكلاب بعد ذلك .

البعض خيل اليهم أنهم سيطلقون سراحنا ؟... وما أسرع ما جاءت الدفعة الثانية من المعتقلين من قطاع غزة . شرطة المباحث والمخابرات أصبحت تنام في أذان الناس .

★ ★ ★

... وزارني ابي اخيراً ، ورغم الكارثة التي حلت ، فلقد كان هو ... هو — المشرّد العظيم — الواقف أبداً — وغير القابل للسقوط .

حدثني ، كيف طلبوا منهم مغادرة الكويت فوراً ، وفي أول طائرة : — ولكن الى أين ؟... ؟

● هذا شأنك انت ...

ولم يكونوا يملكون غير وثائق سفر صادرة من القطاع ، وقد انتهت مدتها . . لا باس ، وضعوهم في الطائرة ...

— أسرة بأكملها — بلا نقود وبلا جوازات سفر — منعوها من العودة لقطاع غزة ... وهكذا وجدوا انفسهم في مطار تلنديا .

لحسن حظهم ، ان مطرودين اردنيين وفلسطينيين ، كانوا معهم على الطائرة نفسها ، معتقلين شيوعيين ووطنيين ، فالتقوا حول تلك الاسرة . فليرحع الندي دائماً اسماءهم .

— طلبوا مني مغادرة القاهرة فوراً . سبعة أيام حتى سمحوا لي بزيارة واحدة لك ولمدة نصف ساعة . لا تهتم .. سوف أسافر بالباخرة من الاسكندرية الى بيروت ، هناك امك واخوتك .. ليست المرة الاولى التي نطرد فيها .

★ ★ ★

يلتف حولك المعتقلون ، ويسألونك عن اخبار غزة ، فتحدثهم عن اخبار المطرودين من الكويت . ولكننا كنا ندخن ، ومسحوق لنا ببعض الزيارات ، والكلب « لامي » أصبح يألفنا ، والكلبة « عنايات » حبلى .

وسمحوا لي بزيارة - صهبا البربري - في الحنبر الآخر . كنا في بعض الاحيان نتناول طعام الغداء معا .
حولنا زنزانة الى مطبخ ، وكان عبد المجيد كحيل - طباح المعتقلين - كانت لنا جميعا « حياة عامة » . كل الحوالات المالية والسجائر توزع على الجميع .

★ ★ ★

- اتنا نشترى حياتنا بالمال .
هكذا كان يقول لنا الحاج - محمد ابو دقة - الذي كان يدفع الكثير ، ولا يطلب منا الا القليل . عن طريق معتقل فلسطيني عادي مشبوه اسمه - ابو احمد - كان يزيد ان يبتزنا هو الآخر ، انتقلت اخبارنا في السجن الحربي الى المباحث والمخابرات في غزة . مطالبوا بنقلنا من السجن الحربي . اعترف - جناب الباشا - « حمزة البسيوني » فيما بعد ، للحاج محمد ابو دقة ، ان في غزة ، اطلقت يده تماما بالنسبة لنا - اباحتنا له - وانه ببساطة كان مشغولا بأشياء أخرى ، فنسينا ، وحينما تذكرنا ، مات الوقت .

★ ★ ★

السجان ، أصبح يحمل رسائلي الى صهبا البربري . والسجان دائما هو بوسطجي - السجين .
- رسالة من الزجاجة .
وأعرف أنها من صهبا البربري ، كان السجان يسمى المرأة زجاجة .
- زجاجة ماذا ؟...
ويقول وهو يضحك :
- زجاجة ياسمين .

★ ★ ★

ولكن بعد اربعة اشهر ، قاموا بترخيل « الزجاجة » الى سجن النساء في القناطر الخيرية ، حيث كانت هناك : الرسامة انجي افلاطون ، والممثلة محسنة توفيق ، وناطمة زكي ، ثريا ابراهيم ، ثريا ادهم ، ثريا حبشي ، سعاد بطرس ، أميمة ابو النصر ، انتصار خطاب وأخريات .
والى القلب وجه فخري مكي نصل السكين .
ذات يوم جاء السجان ، الى حجرة - خليل عويضة - وفي يده رسالة ، وقال :
- اين فخري مكي ؟...

خليل عويضة كان قد طرده من زنزانتة ، لسوء سلوكه . سألته لماذا يسأل عنه ... ؟ ضحك وقال :

— قال لي حضرة الضابط ، أن أُميد له هذه الرسالة وأقول له :

— بلها واشرب ماءها .

وفتحت الرسالة وقرأتها ... وسقطت فوق السرير ، في حجرة خليل عويضة . كتبت أسمي سريره : عرش لومومبا . وناولته الرسالة المشوومة .

كأنت موجهة من مخري مكى ، الى منير الرئيس ، وهو يعلن له في الرسالة ، انه على استعداد ليعلن براءته من الشيوعية ولكن حينما يفرج عنه ويصل غزة ، فهو يخاف منا — أي من المعتقلين — لو استنكر الشيوعية في السجن العربي .

★ ★ ★

جمعت قيادة الحزب في زنزانة، وقرأت عليهم رسالة مخري مكى لمنير الرئيس، مصدر القرار بطرده من الحزب .

★ ★ ★

تم ترحيلنا من السجن العربي ، الى معتقل الواحات الخارجة ، في النصف الثاني من عام ١٩٦٠ . حينما جمعونا في ساحة السجن ، ظن بعض المعتقلين ، انه الامراج .

نمر هنية ، حينما رأى الحرس بتيابهم السوداء أمام عربات اللوري في ساحة السجن العربي قال :

— هذه الغزيان ، لن تقودنا الى غزة .

وبالفعل لهذه الغزيان ، لم تقودنا لغزة ، ولكن الى معتقل الواحات الخارجة .

★ ★ ★

في عربة القطار ، لا ادري كيف داهمتني، قصة « هوارد فاست » — سيلاس تمبرمان — فرحت أهكيا للرماني .

كان استاذاً جامعياً ، ورفض خلال — حملة مكارثي — أن يخضع لتعليمات المكارثيين . طلبه الوحيد كان ينتظره وراء نافذة ، وقد ألصق وجهه بزجاجها . ويرفع أحد المكارثيين يده بحجر ، ويضرب وجه الطفل ... خلف الزجاج ... ويمتلئ وجه الطفل بشغايا الزجاج ، ويمتلئ منه ، ويمتلئ عيناه ... ويمتلئ وجهه بالدم .

انهم يجعلونك تحب الشيوعية اكثر . والتي تكلف كل هذا الثمن الباهظ
من التضحية .
— جملة واحدة وتخرج . قل انك لست شيوعياً . قلها ، او اكتبها ، لا فرق .
وماذا يضر الذي يقول انه ليس شيوعياً ، ان يكتب هذه الجملة ، ما الفرق
بين الهواء والورق ، حينما يتم استنكار الشيوعية ؟

★ ★ ★

في مايو ١٩٦٠ خرجت من السجن الحربي الدفعة الاولى ، كانوا اربعة ،
وخرجت — سهباء البربري — من سجن القناطر الخيرية — بعد ان امضت
١٣ شهراً — .
وبعد ثلاثة اشهر — في اغسطس ١٩٦٠ — ، تم ترحيلنا من السجن الحربي
الى سجن الواحات .

الدَفْتر الشَّامِنِ

— كل شجرة وضعوا المنشار فوق كعبها ، تصيح وهي تهوي كذراع نهر :
— الورق تادم ماكتبوا .
وكالشجر الذي يرمونه في النهر فيمشي معه ، كل شجرة قد التصقت
بالاخرى ، كان الماء قد تحول الى صمغ ، رمونا في اكسبريس الصعيد من محطة
الجيزة الى اسبوط — وقد التصق الواحد منا بالآخر . الدم قد تحول الى صمغ ،
وتحجر فوق الكلبشات .
كان مبلر القطار يخرج من رقابنا ، ولكننا صرنا نرى الارض التي لا تحد .
والناس الذين كانوا يمشون .

خلف نافذة القطار ، يوجد عالم يبشي ، وهاتحن نرى بقرة بعد اكثر من عام ،
ويظهر حبار : يرتفع راسه وينهق في وجه القطار : الذي راح ينهق هو الآخر .
— تسقط الشيوعية :
تتذكر ذلك الصوت المشؤوم . انه لا يزال معلقا في الهواء . هناك من يهتف

وقد ارتدى عنقه جوربا .
الرفيق محمد الشامي يتمم وهو ينظر الى الكلبش في يده . والمشدود الى
يد رفيقه :

— اننا نبتعد كثيرا عن غزة .
تلال من الضباب تمتد أمامنا . تتناثر فوقها حجارة مدورة .
— هذا هو وادي البطيخ ؟
ويشيع أحد السجائين بوجهه . وقد راح يتحسس راسه .
كان كل حجر يشبه البطيخة . أية ريح دورت كل هذه الحجارة فوق تلك
التلال . كانت السماء بيضاء شاحبة ومغبرة بنقط سوداء : الغريان .
من محطة اسبوط الى محطة المواصلات . ثم الى محطة المحاريق ومنها الى
بوابة معتقل الواحات .

على جانبي الطريق . ارض لم يمش فيها جذر . لم تظهر فيها شجرة — حتى
كمعجزة — ارض لو القيت فوقها وردة . لاغي على الهواء . فوق تلك الارض
كانت الغريان تقوم بدوريات منتظمة .

في ساحة سجن الواحات . مجموعات من الشيوعيين المصريين . وشجيرات
زهرة عباد الشمس باعناقها الطويلة المرسعة بالتيجان الصفراء . لقد زرع
الشيوعيون المصريون : زهرة الشمس .

الاسم من جديد والمهنة ... الخ ولئن بلا كراييج . فلقد سقط « شهدي
عظيمة » و « فريد حداد » و « محمد عثمان » و « رشدي خليل » .
و « مصطفى شوقي انبهنساوى » . دفاعاً عن أسمائنا جميعاً . هذه الاجراس
التي ستظل تدق في رقابنا . تحمل صوت الشيوعية .

طواقي من الكتان لها رفراف . لا يهيم واسعة او ضيقة . وتمصان ايضا من
الكتان . بعضها منهم واحد . وسراويل . معظمها مقبوض عند الركبتين . وهكذا
التوا بونا في زنزانة . المالبس التي نلبسها في زننازين مشفرقة مع الشيوعيين المصريين .
ولكن ادارة السجن لم تكن تفرق بيننا وبينهم .

ترتلتا الرفاق المصريين عام ١٩٥٥ في سجن القنطرة . وهم الحزب الشيوعي
المصري الموحد . وها نحن تلقاهم الآن وهم : التنظيم الضروي من الماسي .

الشيوعيون المضربون يأتون إلينا : الرسام — زهدي — هو هو بصوته المبحوح ، وعينيه الحادتين اللتين ترقرقان عليك بخنان كل الألوان . — أحمد طه — كان لا يكاد يرى من فرط الهزال — محمد علي عامر — هذا العامل الذي سيأتي ملكوته . داوود عزيز . عدلي جرجس ، طاهر عبد الحكيم . عبد المنعم شستة ، زكي مراد . الدكتور فوزي منصور . محمد عطا الله ، لويس اسحق . . . ونخلات كثيرة أخرى .

كانوا يأتون إلى الاممية ، وكنا ممثلي الاممية — فقد كنا الشيوعيين الأجانب الوحيديين في معتقل الواحات الخارجة .
— انني احببكم باسم اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري . اسمي فخري لبيب .

كان كالريح . اعطاني قلبه منذ أن صافحني .
فتحت الزنازين ، ودخل الرماق المصريون ، يحملون هداياهم : اقتداح الشاي وعلب السجائر . . . كانوا يصغون لما حدث لنا في قطاع غزة ، وفي السجن الحربي وهم ينتفضون . هم الذين واجهوا في « أبو زعبل » ، مسؤولية الموت الجماعي .
— الحزب لا يزال يعمل في الخارج ، رغم كل تلك الغارات التي انتهت باعتقال المئات من كوادر الحزب .

الهواء في الواحات . . يشارك في نحت الوجوه ، وأشعة الشمس المسنونة ، التي حينها تسقط فوق رأسك تكاد تحز عنقك ، تقوم بعملية الرتوش الأخيرة . . . ويلخص لي — فخري لبيب — معتقل الواحات الخارجة في جملة واحدة :
— نحن هنا للموت ، ويجب أن لا نموت .

كان علينا في معتقل الواحات الخارجة ، أن نتعلم الكثير من النخلة . . . وإن نظل نوراق دائماً أو نهلك .
يمضي فخري لبيب :

— هنا نسمي البصلة : دجاجة ، فماذا نسمي الدجاجة . . . ؟ اننا نقاتل من أجل حبة اسبرين . معظم الرماق مصابون بالدوسنطاريا ، وسوء التغذية لا يحتاج إلى تقرير طبي . الرغبة قرص من الهواء المعجون بالفنار . . . يوجد بعض الاطباء من المعتقلين بيننا ، ولكن ماذا يفعلون بلا صيدلية . . . ؟

(هؤلاء الاطباء الشيوعيون المصريون المعتقلون وعلى رأسهم عبد المنعم عبيد ، لا بد وأن يكتب واحد منهم ، تجربته كطبيب في معتقل الواحات الخارجة ، لعل بعض الاطباء الشيوعيين ، هنا أو هناك ، في هذا الحزب الشيوعي ، أو ذاك ، يطالبون باقامة يوم واحد ، للاحتفال بمجد الاطباء الشيوعيين المصريين في سجن

الواحات الخارجة) . . طبيب منهم . انقذ الاولاد الثلاثة لمأمور سجن الواحات من التسمم وهو حافي البدن .
يمضي فخري لبیب :

— استاذ مرموق في جامعة القاهرة . يرسله حسن المصليحي — المستشار الاول لمكافحة الشيوعية — الى سجن الواحات . بعد تهديده بالطرد من الجامعة ، لكي يسقط فوق قدمي ولده الحافيتين في مكتب مأمور السجن يقبلها ويناشده ان يستنكر الشيوعية . . . ؟

— كيف يمكن لذلك الاستاذ الجامعي ان يعلم الطلاب . بعد هذا ؟ حينها سقط راس ذلك الاب — استاذ الجامعة — فوق قدمي ولده — سقط الكتاب من يده .
رفض الابن المعتقل ان يستنكر الشيوعية . ولم يذهب الاب ، بعد ذلك الى الجامعة . ولم يفتح كتابا ولا جريدة . ولم يمسك قلماً . . . حتى مات .
(مرة ثانية . لعل ابا واحدا من آباء المعتقلين الشيوعيين المصريين يكتب شيئا ما تجربته كاب في مرحلة معتقل الواحات الخارجة . لعل بعض الآباء ، من اساتذة الجامعات في هذا الحزب الشيوعي او ذاك ، يشربون ذات يوم ، نخب كتابين . مطرودين من كل المطابع . هما القدمان العاريتان لمعتقل شيوعي مصري وفلسطيني في سجن الواحات الخارجة) .
يمضي فخري لبیب :

— هل تتصور ان شعار نضالنا اليومي ؟ . هو ان نمثل في مطبخ السجن . . ؟
وان يكون هناك مندوبون عن الحزب الشيوعي المصري في المطبخ . . . ؟
الاخوان المسلمون في معتقل الواحات . كانوا يسكتون وحدهم في عنبر آخر . وكان مطلوباً منهم هم الآخرون . ان يستنكروا . . . ولكن ماذا . . . ؟
حينها كنا نعجن الطين باقدامنا وايدينا . وبنينا في ساحة السجن ، مقبة مسرح . لم يفهموا ابدا ما الذي كنا نفعله .

— واس . . واس . . واس . .
عبد الستار الطويلة . يعلن عن نشرة : وكالة انباء السجن .
كان كابن آوى . يلوح بقصاصه جريدة . عثر عليها في الرمل . طارت من يد ضابط في السجن . تاريخها يرجع لثلاثة اشهر .
لا ادري لماذا اتصوره الآن — كالمواطن — توم بين — حينها مات ، يشى وراء تابوته احد رجال الكويكرز . وفوق التابوت ، كان يرغرف غراب . . .
هوارد فاست . كان يكتب نهاية مدير وكالة انباء السجن ، في الواحات

الخارجة : عبد السنار الطويلة .

يمضي نخري لبيب :

— وما نحن الآن نواجه سوء التغذية . والدوسنطاريا . والغبار الذي نيه
بعض النبراء ... والعقارب التي تظهر في الليل . كالملائكة . وتلدغ ايدي الرفاق .
ونواجه الانتسام أيضا . .

ويكمل طاهر عبد الحكيم :

— انذر . نحن نمشي باقدا . بارية . في حقل من الثعابين . . . ويأتي
الانتسابيون . ونفتر تسابين جديدة من بين اسابع ايديهم واقدامهم .

★ ★ ★

يسيدون تلمأ عن غزة . . . معتقلون في الواحات الخارجة — فنحن الاممية
الوحيدة — ونمرر :

— مع جريدة الهواء . مع جريدة الحزب الشيوعي المصري .

كنا نسحو عند الخامسة صباحا . على صيحة الرفيق " لمعي يوسف " :
— طابور الممل يا زملا . . .

لمعي يوسف . كان مسؤول طابور العمل . كل معتقل يلب رغبته وبضلة . لو
كان محظوظا — وسرة ملح في منديله ويمضي لطابور العمل .

كنا نسطف في ساحة السجن . جاويش العنبر يقوم بعملية التمام مع بعض
الحرس . دأنا هناك من يريد ان يتغيب . وكانت مشكلة لمعي يوسف اليومية .

ينطلق الطابور . الحافي في صفوف ثلاثية او رباعية . للعمل في ارض جرداء
تبعد كيلوسرا عن السجن وهناك تبدأ الفؤوس ترتفع . مجموعة من الرفاق تقتلع
الشوك — فاكهة الغربان — ومجموعة أخرى تحاول ترقيع الطريق الترابي .

الرفاق الآخرون . يشكلون حلقات للمناقشة والدراسة .

كانت بعض الجرائد والمجلات الاجنبية والمصرية . قد اخذت تتسلل الى
السجن . عن طريق السجنائين وبعض الرسائل من اهالي المعتقلين . السجنان
في معتقل الواحات . كالسجين ناسا . والتعاون مفروض على الانثين . كان
السجان يأخذ سبه من اي مبلغ يهرنه للسجين من عائلته في الخارج ولكنه كان
يقوم جهرا بغيره .

بدأت الرسائل تحمل اخبار زوجات وخطيبات المعتقلين المصريين . لأول مرة
يحدث في التاريخ السياسي لمصر . أن أجهزة المباحث العامة . راجت تخرض
الزوجات والخطيبات والامهات ضد المعتقلين المصريين .

— انهم هم الذين يرفضون الخروج ؟ ماذا تفعل ؟... هل نخرجهم بالقوة من بوابة سجن الواحات ؟...
ويضيف ضابط المباحث للام او الزوجة او الخطيبة او الاب :
— كل الذي نطلبه ورقة مسفيرة . فوقها جملة واحدة :
— أعلن براءتي من الشيوعية ؟...

بدأت الرسائل الغريبة تجيء الى سجن الواحات عن طريق ادارة السجن ، رسائل من بعض الزوجات يهددن ازواجهن المعتقلين بالطلاق ، ورسائل من هذه الخطيبة او تلك . تعلن فيها تحت تهديد جهاز المباحث وضغطه ، بانها مهددة بالملرد من وظيفتها . وانها تدافع عن ماويلا .
نزل الحزب بحارب على كل الجبهات — هذا الجندي المجهول — ، ولكنه اندهش على « حرب الرسائل » التي راحت تشنها أجهزة المباحث .
ودسست الغالبية الساحقة من زوجات المعتقلين المصريين ومن خطيباتهم ، مسددين رغبة الجرح والارهاب . بل ان اثراً من خطيبة القت بخاتم الخطوبة في وجه الخليل المرتد . . . واندهش الرب الحائلي ، على الكعب الحديدية لحسن المصليحي — المستشار غوق العادة لمناصرة الشيوعية — .
بعد « احرم الربائل » . استخدم حسن المصليحي ، اسلوباً آخر ، هو ترديد مجموعة من الاعتقالات من المعتقلين . خارج سجن الواحات ، ستكون لمسة السيد امير .
وهكذا اندلعت مجموعة من المعتقلين المصريين ، الى سجن النجوم تضم ٧٤ معتقلاً . وثلاث من بينهم الرفيق « نبيل زكي » ، فكله الحزب بقيادة هذه المجموعة .
بعد عدة أشهر في سجن النجوم . من تهديد أجهزة المباحث واغرائها لمثلت حرب سجن النجوم . باتوا يحذرون الزوجة ، يطلبون منها مفتاح البيت ، ويفقدون زنازة المعتقل ، يهدمون به لمكتب مأمور السجن ، يجلسونه وراء طاولة . فوقها ورقة وقلم ومفتاح بيته .
... انكتب وحسب غنائج بيتك وامس خارج السجن ، ان زوجتك واطفالك في انتظارك .
... وما اثار المفاتيح التي تزورها الشيوعيون المحررون والفلسطينيون وراءهم . . . اما الورق الزمير فقد تحول الى برافيس احتجاج .

وهكذا احتفلنا في سجن الواحات باستقبال الرفاق المصريين والفلسطينيين
العائدين من سجن الفيوم .

★ ★ ★

في جلسة خاصة ضمت المسؤول السياسي : الرفيق فخري تبيب وبعض
الرفاق المصريين ، أعلن الرفيق عبد الرحمن عوض الله أدائه لعمله الانقسامى .
وعاد لحزبنا هو والرفيق عمر عوض الله — أصبح فيما بعد المسؤول العسكري
للحزب — وسقط شهيداً في زنزانه في سجن عسقلان عام ١٩٧٤ .

★ ★ ★

في الليل ، يطوف سجان العنبر على الزنازين . انه يريد ان يسهر هو الآخر .
نحييه زنزانه بكوب شاي . وزنزانه أخرى بسيجارة ، ويطوف السجان يوصل
جريدة أو كتابا . أو كوب شاي من زنزانه لأخرى : السجانون المشاغبون
والمغضوب عليهم . كانوا يرسلونهم الى الواحات — هؤلاء السجانون المشاغبون —
المعتقلون — بعضهم كان يتعاطف معنا الى اقصى حد .
في السجن . اليد هي التي تقنع وليس الفم . ما تفعله يداك أولاً ، ثم ما
يقوله فمك . والسجانون من فرط ما أدمنوا الحكايات الشعبية ، يحبون الشجاعة .
كانوا يحبون السهر بين زنازين الشيوعيين ويستمعون اليهم . أبداً ما رأوا طول
حياتهم مثل هؤلاء المعتقلين ، الذين يستطيعون الخروج من هذا الجهنم لو كتبوا
جملة واحدة . ويرفضون .

★ ★ ★

— فلسطينيون من غزة ؟... ما الذي جاء بكم الى الواحات الخارجة ؟...
هل أنتم شيوعيون أيضاً ؟... لماذا لا يقتلونكم في غزة ؟...
كان مطلب الترحيل الى غزة والاعتقال هناك ، هو مطلب وطني للمعتقلين
الفلسطينيين . تقدم له كوب شاي من خلال القضبان ، وتشعل له سيجارة :
— رحمة الله عليه ، لم أر سجيناً مثله . كان فلسطينياً هو الآخر ...
ويمضي صوت السجان :

— هذا السجين الفلسطيني ، جاء مع الاخوان المسلمين المصريين ، وسكن
معهم . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة . كنت مسؤولاً عن العنبر ،
وفي يوم ، قمت بتفتيش زنزانه ، لم يكن هناك في الزنزانه ، غير البرش — فرشاة
من ليف النخل — وموقها صرة ملابس وبطانية ، وفوق حيطان الزنزانه ، رسم

القصة الثانية

طيورا كثيرة ، طيوراً وأشجاراً ومراكب ، ولم تكن تصله رسائل ابداً من الخارج ، لا رسائل ولا حوالات مالية ، ولا زيارة من أحد .

كان قليل الكلام ، مرض مرة مخاف كثيراً ، رغم أن مرضه لم يكن خطيراً . . . كان يفزع الموت في السجن ، وأن يدفن في رمل الواحات . دائماً كان في داخل عينيه وفيه ويديه .

حينما مرض ، قال لي :

— انه ليس قتالا ولا جاسوساً ولا أخاً مسلماً . تسلل الى بلدته وراء الاسلاك الشائكة مع عشرات المتسللين وامسكت به دورية مصرية عند بيت حانون . حوكم « كجاسوس » ؟ وحكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة .

تشعل سيجارة أخرى للسجان ويمضي :

— حينما مررت عليه في تلك الليلة ، لم أكن اتصور . ان هذا هو آخر عهدي به . . . فعند الظهر ضرب البوق في السجن ، يعلن عن هروب سجين . لا أحد يمكن أن يفكر بالهرب من معتقل الواحات . . أين سيمضي . . ؟ فوق كل هذا الرماد . . الحداة فوق رأسه . والمقارب تحت قدميه ، وهو بثياب السجن الزرقاء . . وهو فلسطيني لا يعرف تلك المنطقة

اعترف ليها بعد أحد المسجونين : ان السجن الفلسطيني ، كان يبيع رغبين كل يوم لمدة شهرين — تعيين السجين ثلاثة أرغفة في اليوم — واشترى حذاء من سجين . .

وبدأت المطاردة . . وأصبح السجن في حالة طوارئ . . .

وجاء الليل ولم يعد المطاردون بالسجين الفلسطيني الهارب — أول هارب من سجن الواحات — واستمرت المطاردة أربعة أيام ، وعثروا عليه أخيراً ، بين الشوك في عصر اليوم الخامس ، لقد نهشته الطيور الجارحة حتى العظم . . . وكان الى جانبه صرة نقرتها الغربان ، فيها بقايا رغيف ، والى جانبه كان غراباً مكسور الرقبة . . . يبدو أنه كان يقاوم حتى آخر لحظة . . . بعد أن ضربته الشمس وسقط . . . وعادوا به في كيس وبعد كتابة المحضر ، دفنوا الكيس في الرمال .

تكاد أصابع كتيك تنفوس في حائط الزنزانة :

— لو كان معه بندقية . . .

— ماذا تقول . . . ؟

— لا شيء يا جاويش . . .

وتسقط فوق البرش :-

— أجل لو كانت معه بندقية . لما اكله الطيور ...

★ ★ ★

لا بد وان تفكر بشيء آخر ... نذكر الطفل الذي كنهه ذات يوم يجمع
« السنة البحر » من فوق رمال الشاطئ ... كان البحر يقذف السنه كلما
يهيج ... ويحملها الموج . ويلقي بها فوق الرمال ... وكنا نمضي نجمها .
كانوا يقولون :

— انها ببيض الاسمان ...

وكنا نفرح اسنانا بالسنة البحر ... كانت تشبه اللسان بالفعل . ولكنها
من الكلس السريع الذوبان . اذا بللتها بالماء . وفركت بها اسنانك .
... نفرح اسنانك بالسنة البحر . وتمضي تصطاد « السلاطين » انها تراقبك ،
والموجة نغطيها وهي ملتصقة . بالرمل ... نذهب الموجة ، فتتقدم السلاطين
خطوة الى رمال الشاطئ ... تراقبها اكثر ... بعد عشر موجات تصبح فوق
رمال الشاطئ . السلطعون تقف عيناه حينما يمشي ويفتح كباشته — للدفاع —
هذه النعامة البحرية . في حجم العصفور كنا نمضي لاصطيادها . كان اللحم
الابيض . للفقراء . يسلقونها في الماء . ويمصون أرجلها ... لحمها الابيض
يشبه النخاع .

في الصباح تبحث عينا عن لسان بحر . او سلطعون فوق رمال الواحات . .

من زنزاة ترتفع سنوات الرماق المصريين :
 — الحزب الشيوعي المصري ...
 نبنيه بعزيمتنا ...

انهم يدشنون نشيد الحزب في احتفال سياسي ، او عيد ميلاد رميق .
 في حفلات عيد الميلاد ، يفتح الرماق زجاجات « الهوب — هوب » ، ويرفع
 الرماق كؤوسهم رغم سلف الزنزاة ويفنون لسيد درويش ، و « الهوب — هوب » ،
 مشروب ، اخترعه احد الرماق :

كنا نخلط العسل الاسود بالماء ، ونصب هذا البرق البني في زجاجة نسد
 فوهتها بقطعة عجين او فلينة ونرجها ، نلها بخرقه ، ونحفنها تحت الرمال الملهبة .
 بعض الرماق كانوا يعتقون زجاجاتهم في الرمال ، لمدة اسبوعين ، ولكن خمسة
 ايام لزجاجة مدفونة في رمل الواحات المشتعل ، كانت تكفي لكي تتناول كاساً حادة
 المذاق من « الهوب — هوب » . لا ادري ماذا يعني هذا الاسم ... ؟
 يضحك رميق :

— انه يجعل الرفاق يهبون ... ؟

★ ★ ★

بدأت محاولات الصعود للقمر ، وأحد المطالب الرئيسية للمعتقلين في الواحات ، هو السماح لهم بارتداء الاحذية ... من فرط اشتعال الرمل ، كما نكأ اقدامنا العارية بالخرق ... او بقصاصات أوراق الجرائد ... حينما جاء حسن المصيلحي الى سجن الواحات ، يقود شخصياً — حملة الردة — وكادت اصابع المعتقلين ، تنفخ كالمسامير في وجهه المنقط — من آثار الجدي — قال لمأمور سجن الواحات : — أعرف الآن انني كنت حكيماً ، حينما رفضت السماح للشيوعيين بالاحذية ، لو اعطيتهم الاحذية لضربوني بها ... ولقد ضرب حسن المصيلحي في معتقل الواحات ، بالمنجنيق السياسي ، وخرج وتصيد — المرتد — تلاحقه ، وكان ذلك في ١٢ فبراير ١٩٦١ . قام الرفاق بكتابتها بالقلم الكوبية على كل ما يمكن ان يكتب فوقه : ورق السجائر ، قلب الكبريت ، قصاصة ورق ، ملبة سجائر ، قطعة تماش ، مندبل ... حيطان الزنزانة ... وأقام الحزب الشيوعي المصري ، احتفالا خاصاً للقصيدة ، وبمعداها ، كنت انتقل من زنزانة لأخرى القىها على الرفاق ...

★ ★ ★

انا سأظل مديناً للرفيق طاهر عبد الحكيم — طول عمري — لانه تمكن من الاحتفاظ بها مع بعض وثائق الحزب رغم الغارات البوليسية ، وفي الوقت الذي فقدت فيه الامل بالعتور عليها ، قدمها هدية لي ذلك الرفيق الشجاع . وقصيدة المرتد ، كانت وثيقة بالفعل ، من وثائق الحزب الشيوعي المصري — في وجه حملة الردة — كان برنامج المصيلحي ، اخراج المعتقلين زنزانة بعد أخرى ، بدءاً بالطبع بمقابلة الذين سقطوا ، وكان عددهم اقل من اصابع القدمين ، احدهم حينما عزف بوجود المصيلحي في مكتب مأمور السجن ، راح يؤذن في غير وقت الاذان . وقرر الحزب ، ان يقابل المصيلحي فقط ، لجنة باسم الحزبين المصري والفلسطيني ، تواجهه بلائحة اتهام الشمين المصري والفلسطيني . غير ان بعض المرتدين من الفلسطينيين تسللوا الى مكتبه ، وهما : فخري مكى وعطية مقداد . رفيق رفعتي حتى تضبان نافذة تواجه مكتب مأمور السجن ، حيث كانت

حجرة عمليات المصليحي ، وينطلق صوتي :
 اركع للورقة *
 اغرس قللك
 في ميني طلك ، واكتب ما امرك
 ان تكتب من ثبحك
 بالقلم على عتبة بيتك
 كوم ايامك بدامك ، اوراقا واسال
 لا تخجل
 جلادك من مود ثقاب
 اعجن من وحل دخلك ، ورمادك
 صفحات كتاب
 اعجن اوراقك وتذكر
 لو كان الميت يتذكر
 انك من هذي الكلمات تضفر
 حبلا ، وتعلق من هذي الاسطر
 غنى ككنت تلح حبيبك ،
 واقدمه على طبق من ورق اصفر
 قص ضلالتها لتضمد
 جرح الضبع الاسود
 الدغ كالمعرب مبنها اقدم
 لا تحجم .
 اقدم واترع .
 كالضفدع
 اجراسك للمستفتح

●
 وقع وقع
 اسمك في ذيل الورقة وقع
 وقع وتسلل
 كالص الى بيتك واحذر
 ظلك ان يقع على مصنع
 فامضغ ظلك منديلا من سم واهرع

أظرق أظرق
بابك حتى تتمزق
يدك فلن تسمع
خطوة من كانت تهواك ويخفق
ساعدها في يدك كسيف من ماس
وكبيرق
فالآن كهود رماد وكخيطة دخان أسود
ساعدهك تبدد
أقرع أقرع
لن تسمع حطوطها لن تسمع
قد نزعته طوقاً من شوك
خاتمك من الأصبع

المهرب أين المهرب
لم تقهر أطفال لينين ولم تغلب
قد كذب المخلب
قد كذبت كل عصي الجلاذ فلم تركع
في أبي زعبل
أطفال لينين ولم تهرع
تملاً شديتي ذئب الفيوم الأصفر
ورقاً من ورد أحمر قد فتح
علماً من ورد أحمر قد فتح
يتحدى سكين المذبح

ماغرر عينيكَ كتابين تطلع
لو تقوى أن تطلع
أنا المح نوق الرمل الأصفر
تضبان المزة تتكسر
ودمشق بدمية « عمار » دمشقي تلوح
لكم ، أطفال القاهرة تلوح

متطلع ولتتوقد
في عنقك جمره جرح اسود
جمرة جرح لا يخمد
متطلع لو تقوى ان تتطلع . . . ان تتصو
قلب « مرید » المصلوب على قلبي نور
كروانا احمر
قلبي كروان احمر
قلبي حنجره الانوار ولن يهدا يصدق
لن يهدا شرر الاغنية يقدح

القلم السكران من السم ترنج
عبثا يسنده السجان وتسفده الاسطر
والذكرى موجة شوك تنكسر
موق جفونك وتورق
حتمى السموت في قلا يودا بالانيم
المريانة يطرق
ارضى الزنزانة ، والليل عاى
مدراك بابه مغلق

سجائنك اقبل
كالحفرة كالمحول
اين ستمضي ؟ البيتك ؟
بيتك في ظهرك خنجر
الطفلك ؟ طفلك فوق صليب
الاوراق بدميته سمر
ستساق الى الشارع تعثر
في ظل السجان تعثر
اين ستمضي والريح تطير
خطواتك اسطر ورقة .

★ ★ ★

التفكير المتأنيب

في زنزانة أخلاها الرفاق ، وبحضور الرفيق فخري لبين والرفيق (م. ب) قدمت الرفيق (خ. ص. ع) فأعلن انضمامه لحزبنا .
معتقل يطلب عضوية الحزب — الحافي القدمين — المصلوبة يده ، والمنفي خارج أرضه ، يجيء لنا في مرحلة دهنوا فيها جسد الحزب بالعسل الاسود ، ربطوه الى عامود ، وأطلقوا عليه طيورهم السوداء والرمادية ، تصطاده وهو مربوط في الحبال .

متى يطلب المناضلون بطاقة الحزب ؟...
— يطلبونها في عصر العسل الاسود والحدادة . وفي مثل معتقل الواحات الخارجية . حيث المطلوب منك — ومن (ف. ا. و) — مائة عام ليده ولید جباليا والنزلة التي كتبت من أجلنا الكثير — أن تكتب جملة واحدة وتخرج ، مباركا من كل الملائكة ، التي ظهرت فجأة ، في ثياب البوليس البصري ، تطارد الشيوعيين ، ولكن أجنحتها كانت مليئة بالتمل .

★ ★ ★

ونلتج زجاجة « هوب — هوب » ، ونشرب نخب (خ. ص. ع) الذي انضم للحزب الشيوعي في قطاع غزة ، في معتقل الواحات الخارجية .

★ ★ ★

صدر قرار الحزب الشيوعي المصري — المشترك مع حزينا — باعلان الاضراب المفتوح عن الطعام . تم تقسيم المعتقلين المصريين والفلسطينيين الى ثلاث دفعات ، وتشكلت لجنة لقيادة الاضراب المشترك : فخري لبين — طاهر عبد الحكيم — نبيل زكي — معين بسيسو .

في الرابع من يوليو ١٩٦١ ، دشّن سبعة من الرفاق المصريين سفينة الاضراب ، كانوا قد انتهوا عقوبة السجن ، فمُخلموا قمصان السجن الزرقاء ، وارتدوا القمصان الترابية للمعتقل . رفضوا تلويث أصابعهم بالدخان الصاعد من رئتي — حسن المصليحي — .

★ ★ ★

منذ شهر كانت ورشة الاعلام الخارجي للحزب تعمل لكي يصل اعلان الاضراب الكبير المفتوح الى العالم وخرجت أسلحة رشاشة من المخابىء : أقلام الكوبية ، ورق لف السجائر ، طاولة الكتابة ، جردل ماء مغلوب . كان كل ما يربطنا بهواء العالم : بعض الجرائد التي كان يهربها بعض

السجائين ، وكانت تكلفنا الكثير ، ولكن الجريدة كانت في اهمية الدواء .
 الهواء القادم من اذاعة موسكو ، يصل لنا رغم دوريات الغريان المنتظمة
 ورغم الحراسة المشددة على الهواء ، يحمل صوت الحزب السذي بناه جدنا
 - لينين - . من باريس فوق جريدة الاومانتيه - المقاوم الشهيد غبرائيل بريه -
 يفتح خراعيه لنا : لستم وحدكم . ومن بيروت ، لم تستطع - الصيدلية - التي
 اذابت - فرج الله الحلو - في البانيو . ان تذيب صوت الحزب الشيوعي اللبناني
 الذي طبع وجهها على كفه ومضى يلوح بها للعالم . من بغداد حزب - يوسف
 سلمان - وجه وجناح الفلاحين العراقيين كتب : - نسيم رثيه - منشورات
 من اجلنا . مؤاد نصار كتبت اراه دائما في زنازنتي قلب جردل الماء وبالقلم الكوبية ،
 فوق ورق لف السجائر ، كان يكتب لنا . من زنازين سجن المزة كانت اصوات
 زمقاتنا في الحزب الشيوعي السوري ، تترنم فوق رؤوسنا ، كطيور النورس ،
 تبشر الذين اكلوا ثمر شجر الخروج بغاكهة كل شجر الشواطىء .
 طائر الرخ ، اصبح عضوا في الحزب الشيوعي المصري - الفلسطيني .
 نحمل رسائلنا والقى بها في صندوق بريد ، كل ما هو جميل ونبيل وشجاع في
 العالم . وحمل رسائلنا لعائلاتنا في مصر وقطاع غزة .
 كان على الرسالة ان تسافر اكثر من ثمانماية كيلومترا ، لتصل من الواحات
 الى القاهرة ، واكثر من الف وخمسمائة كيلومترا لتصل الى غزة .
 وهكذا اعلنت « الهياكل العظمية » التي يرصعها ندى الشيوعية ، يوم
 الاضراب ، صباح ٤ يوليو ١٩٦١ .

★ ★ ★

الطبيب المعتقل - عبد المنعم عبيد - قام بفحص المعتقلين ، قبل اعلان
 الاضراب ، وكان تقريره عن المعتقلين :
 « - معدل الانخفاض في الوزن يتراوح بين ١٢ - ١٥ كيلوغراما . الاغلبية
 مصابة بالانيميا الحادة بالاضافة الى اصابتها بالدوبنطاريا . السهل الرئوي :
 حالات مؤكدة : سعيد عارف ، احمد رضا ، عبد المنعم ناطورة . حالات اخرى :
 التهاب الكبد الوبائي : اسماعيل عبد الحكيم . سرطان في المعدة : احمد البكار .
 حالات تهدد بالعمى : فتحي عبد الفتاح .
 الذبحة الصدرية ، التسمم البولي ، الحمى الروماتيزية ، المغص الكلوي ،
 البقع الجلدية ، طوابع بريد حسن المصليحي على ظهر وصدر كل معتقل .
 كل هؤلاء اعلنوا الاضراب المفتوح ، في ٤ يوليو ١٩٦١ . قبل ١٩ يوما ، من

٢٣ يوليو ، اعلان الثورة — و اعلان قرارات يوليو الاشتراكية .
كل الذين كتبوا عن هذه القرارات ، او يكتبون عنها الآن ، كيف بإمكانهم أن
يتصوروا من سيقوم بتطبيقها :
حسن المصليحي كان ما يزال : المستشار الاول لمكانة الاشتراكية والشيوعية
والديمقراطية . الكلب « لامي » أصبح له احفاد في السجن الحربي .
الضابط يونس مرعي ، لا يزال يحتفظ بعصاه التي قتل بها : « فريد حداد » .
فريد شنشين ، مأمور سجن الواحات ، لا يزال يضع يده على مسدسه ، كلما
راى ورقة وقلما في يد معتقل .
قيادة الطبقة العاملة المصرية حافية القدمين مضروبة بالكرابيج ، ومصابة
بالسل الرئوي . قيادة الفلاحين مصابة بالدوسنتاريا والذبحة الصدرية . قيادة
الثقافة الوطنية ، مصابة بالتسمم البولي وبالقرح المعدية وبالمغص الكلوي .
ورغم ذلك تصدر جريدة « الهواء » الناطقة باسم الحزب الشيوعي المصري ،
والذي كان يرأس تحريرها اديب ديمتري .

★ ★ ★

الدَفْتر العَاشِر

عام يسلمنا لآخر ، وحذاء المعتقل قطعة من قميصه يلف بها قدميه ويواصل المشي فوق الرمال المشتعلة . كان علينا أن نفعل شيئاً ، لكي نلفت انتباه الذين يمشون بأحذيتهم فوق الكرة الأرضية . وهكذا كان لابد من الاضراب ، وقررناه اضراباً مفتوحاً ، مهما كانت النتائج .

ننظر الى الذين كان عليهم أن يخوضوا معركة الاضراب : عيدان تمح ملفوفة بالمناديل . طيور ذات شجاعة نادرة ومصابة بالدوسنطاريا ، لشهر أو شهرين كان عشرات من الرفاق المصريين والفلسطينيين المصابين بالدوسنطاريا يعيشون على كوب من الشاي وقطعة خبز متخشبة .

كان الرفاق يجففون رغيف الخبز في الهواء الملتهب . وهؤلاء هم الذين دخلوا يوم ٤ يوليو ١٩٦١ .

سبعة من الرفاق الذين أنهوا مدة السجن وانتقلوا من اللون الأزرق الى اللون الرمادي — من مسجونين الى معتقلين — كانوا سفينة الاضراب الاولى ، فقامت ادارة السجن بعزلهم ، في عنبر آخر بعيداً عن زنازين عنبرنا .

غير ان صوتنا قد أصبح في هواء وجرائد العالم : راديو موسكو . و راديو بغداد . جريده « الاخبار » . كف الحزب الشيوعي اللبناني المكتوبة . وجريده « الاومانيتيه » . وجريده « اليونيتا » . الغربان فوق معتقل الواحات الخارجة . كانت في انتظار ١٩٦ منبريا محسريا وفلسطينيا عن الطعام .

★ ★ ★

الجسد أصبح غابة . وعو في ايام الاضراب . تتجمع كل اشجاره وطبوره وبنابيعه . وتطلق الواهيا الاخيرة في سوارينخ في سماء العالم . في اليوم الثامن . مائة واربعون معتقلا ينضمون الى سفينة الاضراب . في الليل يصعد من الجسد كل البرق الذي امتعه عبر كل سنوات المطر . وياخذ شكل الاغنية . طبيب السجن — السجن — كان يزور التقارير . قبل الاضراب . كان يسرق حبات الاسبرين القليلة من انواعها . وهو الآن في ايام الاضراب . جاء يسرق صوتنا ويطلبنا بانهاء الاضراب بلا قيد او شرط . . . ؟ في الليل . تقفز سمكة من نافذة الزنزانة . مرصعة بأعشاب البحر وتنسقط بين المضربين . تحس كأن موجة نفضليك . تسمع خشخشة اوراق بعيدة متقلة بأصوات العصافير .

أحد الرفاق يضحك وهو يصيح :

— من يستطيع أن يرسم برتقالة . . . ؟

مشى أحد الرفاق الى الحائط ورسم البرتقالة . وتفسخ الزنزانة . الحارس يطوف وفي اليوم الحادي عشر من الاضراب .

— لو سقطت برتقالة في الزنزانة . لانبجرت كالقنبلة اليدوية وتقتلنا جميعاً بعطرها . . . ؟

يفهم أحد الرفاق .

★ ★ ★

حوصر السجن تماماً الآن . وأعلنت ادارة السجن حالة الطوارئ . حرس السجن في أيديهم . المدافع الرشاشة والقنابل المسيلة للدموع يحيطون بعنبرنا . فادارة السجن كانت تتوقع سقوط الضحايا .

في اليوم الرابع عشر . كنا نستند الى الهواء . لقد تحولت الطيوف الى ظلال . والظلال الى أصوات لا تكاد تزي .

في اليوم الخامس عشر : جاء مندوب عن رئاسة الجمهورية — البكباشي

وحيد أبو العلا — وبدأ يسجل أصواتنا .
 — ما الذي جاء بكم من غزة الى الواحات الخارجة ؟
 تسمع رائحة الزيتون في صوت هذا الضابط النبيل . — جرد فيما بعد من
 رتبته العسكرية والقي به في السجن الحربي — بتهمة التعاطف معنا — .
 في اليوم السادس عشر . انتهى الأضراب . وانتصرت زهرة عباد الشمس
 على الكرياج ، وكان ذلك في ٢٠ يوليو ١٩٦١ .
 في ٢٣ يوليو ١٩٦١ . أعلنت قرارات يوليو الاشتراكية .
 — ... ولكننا لا نستطيع تطبيقها او حمايتها في معتقل الواحات . وحسن
 المصباحي لا يذبح الشيوعيين بكنه من أجل أن تمر تلك القرارات .
 في ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ . جاء صوت الانقلاب من اذاعة دمشق يعلن :
 — فسخ الوحدة بين دمشق والقاهرة .
 نتذكر — الباثيو — الذي ملأوه بماء النار والقوا فيه بالرميق نرج الله الحلو .
 مرضوا على الشيوعيين والوطنيين أن يكتبوا بالحبر الأبيض . بينما عدو دمشق
 والقاهرة — عدو قرارات ٢٣ يوليو الاشتراكية — يكتب بالحبر الاسود عناوين
 جرائد الثورة المضادة .
 الوحدة لا تفرضها الكيمياء .

بدأت طرود الادوية تصل الينا واصبح لاطبائنا المعتقلين : صيدلية .
 أكثر من صيدلية في غزة . كانت ترفض أن تتقاضى ثمن الادوية المرسلة لنا .
 واطباء كثيرون وعلى رأسهم الطبيب المرحع الكفين بالبرق الفلسطيني : حيدر
 عبد الشافي . كان يقوم بإرسال صناديق الادوية .
 أديب ديمتري : جسده يغيب في قميص وينطلون . كان يذوب كل يوم :
 — يجب أن يخضر الرفاق .
 لو القى أجدهم يعود ريحان في زنزانه . لذهب كل المعتقلين في قيبوبة

رفيق يؤمن بحتمية الاخضرار في هذه المرحلة الرملية : كمواجهة لا بد منها .
 لبرنامج التجويع حتى الموت يقول :
 — نحتاج الى سماد وبذور وماء .
 البحث عن السماد لم يطل . فالمعتقلون الجياع في الواحات الخارجة ،
 يذهبون لدورة المياه ويقدمون : سمادهم .
 — والبذور ؟ ... ؟

النسجان الذي يحضر رسالة من القاهرة ، يمكنه أن يحضر بعض البذور .

— والماء ... ؟

— هناك نبع بعيد . ويمكن استدراج مائه .

يرتفع صوت المهندس الزراعي المعتقل — عبد المنعم شتلا — فتحس أنه مبتلل بالماء .

عرضنا المشروع على مأمور السجن مضحك هو وضباطه :

— مزرعة هنا ... كيف ... ؟

لم يكن يتصور أن : مخري لبیب ، لويس اسحق ، حلمي ياسين ، محمود امين العالم ، الدكتور عبد العظيم انيس ، محمود القويسني ، احمد طه ، الدكتور فوزي منصور ، الدكتور مؤاد مرسي ، داوود عزيز ، طاهر عبد الحكيم ، عدلي جرجس . ميشيل كامل ، ريمون دويك ، محمد شطا ، خليل عويضة ، يوسف درويش . ابراهيم عامر ، امير اسكندر ، الدكتور كمال الدين حسين ، ادیب ديمتري . الفريد مرج ، شوقي عبد الحكيم ، محمد علي عامر ، زكي مراد ، نبيل زكي . فريد ابو وردة . سمير البرقوني ، زهدي ، عبد المجيد كحيل . محمد الشامي . عبد الرحمن عوض الله ، عمر عوض الله ، عبد القادر ياسين ، شعبان حافظ ، احمد صادق سعد ، معين بنيسو ومحمود نصر ، وأسماء كثيرة أخرى يمكن أن يحملوا القفف المليئة بالسماد الطازج على أكتافهم ويمضوا مسافة كيلومتراً ، ليفرقوها فوق الرمال الملتهبة .

فتحت الآبار . ونزل اليها بعض الرفاق . الايدي تمتد لتحمل تلك القفف ، كنا نهضي بها حيث المساحة المحددة لاقامة المزرعة .

الرائحة كانت كريهة ، ولكن هذه هي رائحة : حسن المصليحي ،

نرحنا الآبار في ثلاثة أيام ، في مواجهة دهشة مأمور السجن وضباطه

والسجانين .

وبدأنا عملية خلط السماد بالتراب . مأمور السجن أعطانا ثورا للحراثة .

هذا الثور العظيم ، سقط بعد أيام ، سقط فوق زكبيته ، كأنه يريد أن يقول :

— لقد-انتهت مهمتي .

وصدر القرار بذبحه . واكل المعتقلون لأول مرة ، لحمًا له رائحة المشب

الخارج لتوه من البحر .

البذور جاء بها السجانون ، ثم بعد ذلك صارت تأتي في طرود . كان لدينا

خبراء في الزراعة ، مارسوا « ديكتاتوريتهم » الجميلة لأقصى حد . ولكثهم

يستحقون أن يتوجوا — ملوكاً — فقد جعلوا الرفاق يحضرون .

الماء بدأ يسيل من النبع . يجري في قناة . والقناة كانت تتحول الى شرايين
والرفاق يصيحون :
— الماء ... الماء ...

عشرات الرفاق المحررين نطوعوا لكي تكون للفلسطينيين مزرعتهم الخاصة .
يزرعونها كما يشاؤون . قدموا لنا البذور والماء بلا شروط . واطلقنا على المزرعة :
مزرعة غزة . وكان يشرف عليها الرفيق : عبد المجيد كحيل .

★ ★ ★

— بطيخة ... بطيخة ...

يعرخ احد الرفاق .

البطيخة كانت في حجم بيضة الحمامة . ولكن البطيخة كانت تكبر . البطيخة
والملوخية والباميا والخيار والفقوس والباذنجان واللوبيا . وفي مزرعة غزة
نرعمت اكثر من شجرة بلبل .
— لقد بدأ الرفاق بخضرون .

لم يبق غير أن ينبت السمك فوق رمال الواحات .

قرون شجرة الملوخية او الباميا في رمال الواحات الخارجة . كانت تتحدى
قرون اجهزة المباحث والمخابرات . فحينما يسيل الماء فوق الرمل . تهرب الغربان .
والحدادة تبحث عن منقارها فلا تجده .

نجحت مزرعة المعتقلين المحررين والفلسطينيين . وفي كل مساء كان الدخان
يرتفع من كل زنزانة وتتفوح الرائحة الخضراء . عبد المجيد كحيل يجلس كامبراطور
منوج بالعشب . امام البوتاغاز الفلسطيني : علبة بندورة مثقوبة . في جوفها
خرقة ملللة بالمزوت . يصعد منها اللهب الأزرق بين حجرين فوقهما القروانة .
هذا البوتاغاز نسميه : التوتو .

انتعشنا على المصيلحي . وعلى الرمل . ولكننا فقدنا رفيقا قديما ... فذات
صباح . كف قلب الرفيق — شعبان حافظ — آخر الاعضاء الاحياء في الحزب
الشيوعي المحري الاول . حزب عام ١٩٢١ . عن الخفقان .

كنت مع مخزي لبيب وبعض الرفاق . الى جانب برشه . لحظة احتضاره
... لقد تجاوز الستين من عمره . وكان خمن المصيلحي يعرف انه غير قادر
على الحركة . ومع ذلك فقد قذف به الى الواحات ليموت هناك . ولكي يكون
موته — اربابا لنا — .

قتلني المعصاة ...

بعد عدة الجيلة . اغمض عيني في ١٤ مارس ١٩٦٢ . ولكنه مات كما يجب

ان يموت هذا الجذر القديم محروما من الجسدية المصرية . كانت اول جنازة نسوية في معتقل الواحات . احد الرفاق المتالين وسع قطعه من الجبس فوق وجبه . وصنع تناعا لذلك الوجه القديم .

وانطلق النعش ملفوفا في بطانه حمراء محمولا على اكتاف اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي المصري تحت مع نحري لببب في مقدمة النعش ، ووراءه منى كل الرفاق في المعتقل ...

ونسعد الاصوات مللة بالدمع . وحننا نصل الى مقطع :

... على تبركم في سبب الريح

حمراء نخفق راياتنا "

نصعد دمه من القلب . ويوصع الجذر القديم في سياره السجن . الى محطة اسبوط . ومنها للاسكندرية ليدفن هناك . ويقدم له التراب جواز سفره المصري .

احد الرفاق بصرح :

— مات شعبان حافظ

عاشت الشيوعية !

* * *

من المزرعة كان علينا ان ننقل الى الجامعة . الرفاق الذين اعتقلوا في يناير ١٩٥٩ . كان يمكن ان يصبحوا في السنة الجامعة الرابعة الآن ...

وما دام هناك طلاب وعمال وفلاحون واساندة جامعة . فلماذا لا نكون هناك جامعة ... ؟

وسدر القرار بانشاء الجامعة . وجاء في القرار : جامعة شعبان حافظ .

وايه جامعة يقوم بالتدريس فيها : الدكتور عبد المنعم عبيد . الدكتور فوزي منصور . الدكتور حسين كمال الدين . الدكتور اسماعيل صبري عبد الله ، محمود امين العالم . الدكتور فؤاد مرسي . صادق سعد ، ريمون دويك ، يوسف درويش . حمدي عبد الجواد . نخري لببب ... الخ ...

في جامعة شعبان حافظ . كان هناك كلية لتدريس اللغات الاجنبية . وما اكبر الطلاب والعمال والفلاحين الذين خرجوا من المعتقل وبعضهم أصبح يعرف لغتين او ثلاث لغات . وما الذي يستطیع أن يفعله حزب في معتقل ، أكثر من اختراع مزرعة وبألف جامعة ، واقامة مسرح ، والانتصار على سياسة العداء للشيوعية والديمقراطية — الانتصار على حسن المصليحي — .

— اتنا نقرب من نهاية عام ١٩٦٢ .

يغمغم أحد الرفاق . طار من طار من السرب . وبقي في معتقل الواحات

الخارجة من السرب الفلسطيني ستة طيور .

★ ★ ★

حرس كالغريان ، يرتدون الملابس السوداء ، يظهرون في مكتب مأمور السجن . أحد السجناء يتسلل ليهمس :

— عملية ترحيل ... ؟

— الى أين ... ؟

ويسأل أحد الرماق :

أجل الى أين ... ؟ لقد تركنا طيور النورس ورافنا فوق شاطئ غزة في ٢٣ أبريل ١٩٥٦ وهذه الغريان لن تقودنا الى السفن أبداً .

★ ★ ★

الترحيل كان لنا . وأقام الرماق المصريون مهرجان الوداع . فرشت البطاطين فوق البلاط والقي نخري لببيب كلمة الحزب الشيوعي المصري .

تأدنا الحرس الى لوري ، وانطلق بنا الى أسبوط .

— الى أين يا جاويش ... ؟

ولكن الجاويش لا يرى صوتك .

في محطة أسبوط ، ركبنا القطار .

— الى أين يا حضرة الصول ... ؟

وتقدم له سيجارة ، تشعلها له :

— الى القاهرة .

وتسأله :

— ومن القاهرة الى أين ... ؟

يتردد ، ولكن صوته يخرج من الدخان :

— حينما نصل محطة القاهرة ، هناك من ينتظرنا وهو وحده الذي يعرف أين

ستمضون بعد محطة القاهرة .

ووصلنا محطة القاهرة . حرس في المحطة وضباط . ومن المحطة الى لوري .

— الى أين يا حضرة الضابط ... ؟

كان يبدو عليه ، انه غير سعيد بهذه المهمة التي يقوم بها .

ولكن اللوري المغطى تماماً ، كان يثيق طريقه الى العباسية . كنا نعرف

الطريق جيداً . ينحرف اللوري ، ويدخل شارعاً فرعياً ... لم تكن بحاجة الآن

الى سؤال الضابط ... الى أين يمضي بنا ، فالقواصة ارتفعت من الماء الاصفر :

بوابة السجن الحربي .

الدَفْتَرُ الحَادِي عَشَرَ

سكننا السجن الحربي - في ٢٣ أبريل ١٩٥٩ - وتم ترهيقنا منه الى
الواحات الخارجة في أغسطس ١٩٦٠ - وما نحن نعود اليه من الواحات الخارجة
مرة ثانية في النصف الثاني من عام ١٩٦٢ .
مضوا بنا الى العنبر نفسه الذي تركناه منذ اكثر من عامين ، تغير الحرس
كله وبقي حمزة البسيوني قائداً للسجن الحربي ، الحداة لا تزال ترمرف في بضاه
السجن . والجنود الذين يبيضون مدة العقوبة ، لا يزالون يركضون حفاة في دائرة
واحديتهم معلقة في رقابهم ، والسجانون يلاحقونهم بالكراييج ، المنسجون الذين
اقتربوا من يوم الانراج ، كانوا ينظفون ساحة السجن من الحصى .
الكلب « لاي » مات . ولكن هذا « الجد » ، قد ترك الكثير من الاحفاد
لكي يرثوا من بعده زنازين السجن الحربي .
تتسلل الى زنازنك القديمة - في الدور الثاني والآخر - لم تلمسها مرشاة .
بصمات اصابع داكثة لا تزال موق الحائط - حينما مسح السجان كفه المصبوغة
بدم فريد أبو وردة .

الاسم الذي حفر ذات يوم بذر القميص . لا يزال هو الآخر فوق الحائط
وفوق الباب الحديد .
ماذا تعمل هنا ... ؟
ونخرج والصوت ينقطع بالدم :-
- كنت أسكن هذه الزنانة قبل عامين .

★ ★ ★

الإناء نمر في سميت . نطالب الحرس بمقابلة قائد السجن . قبني الجواب :-
- ليس لديه ما يقوله لك .
ولكن حسن المصلي كان لديه ما يقوله لنا .
بين وقت وآخر كنا نلعب - البريدج - رسمنا العلامات بالقلم الكوبية فوق
خربوش قلب السجائر . كنا وحدنا في العنبر . والحرس كانوا يمكرون في زنائنا .
أصبحنا ناكل معا وندخن معا . ثم تحولوا الى سعاة بريد . ومن الراديو
البرانسور الذى كان يحمله جاويش العنبر . كنا نستمع الى نشرات الاخبار .
ثم أصبحنا نشترى الجرائد من الحرس . وسبحوا لنا بكتابة الرسائل وأصبح
عنواننا في قطاع غزة : السجن الحربى .

★ ★ ★

بدأ الجراد يرحل من هواء القاهرة ومن جرائدها . وحججه احمد سعيد .
مدير اذاعة صوت العرب - تلك القطعة السوداء من الصابون - راحت تدوب
ورغوبها تتساقط من فمه .
مقالات الرقيق " بالاييف " - مراسل جريدة البراد - في القاهرة تظهر في
الجرائد المصرية . واسمعت السد العالى . اخذت رائحته تنسل الى زنائنا .
- لقد ملأوا " البانيو " بماء النار للشيوعيين . وها هو الاتحاد السوفياتى .
يملا " بانيو " آخر . بماء السد العالى للفلاحين المصريين .
صوت احد الرفاق صعد من يده .
حسن المصلي يخرج من مغاربه اخيرا . يدوى صوت البوق . السجن
الحربى في حالة طوارئ . صوت حارس بوابة العنبر . يستعد من قدميه :-
جاويش العنبر . نخوحننا من الزناتين :- نصلف في طابور ونمضي في خطوط
سريعة الى مكتب قائد السجن الحربى .
- زائر كبير في انتظاركم .
جاويش العنبر يدخل الآن في ثباب السجن .

حسن المصليحي وراء مكتب — حمزة البسيوني — ولكن كل واحد منا ،
ثم تحول الى — متادور — واصبح يعرف ، كيف يصارع هذا الضبع
— المصاب بالجذري — .
— الا تريدون ان تخرجوا ؟...
ويرتفع صوت رفيق :
— لم يعلن احد منا الاعتصام في زنازين السجن الحربي .
ينفض الضبع :
— اكتبوا واخرجوا . كما يكتب رفاقكم واخرجوا .
صوت رفيق ثان يرتفع :
— انكم لم تعلمونا الكتابة والقراءة في السجن الحربي . ومعظم رفاقنا الذين
خرجوا . خرجوا اميين .
يتقدم الضبع من وراء الطاولة :
— كلكم مدرسون بالطبع ؟...
ويرتفع صوت رفيق ثالث :
— انني بائع جوال ...
يخرج علية سجانر ويدور بها علينا . لا احد من الرفاق يمد يده . مطر
اجساد رفاقنا الذين ذبحهم هذا الضبع . كان يسقط فوق ايدينا .
يلتفت الى حمزة البسيوني :
— اعطهم اوراقا واقلاما وسبكتون .

ولقد كتبنا فوق تلك الاوراق رسائل وقصائد ومذكرات احتجاج على استمرار
اعتقالنا للحاكم الاداري العام لقطاع غزة — الفريق العجرودي — .
وجاء جاويش العنبر فحمل المذكرات — فرح لاننا كتبنا — وذهب بها الى
— حمزة البسيوني — كان احد النجوم قد باخر في يده .
بدأوا يفتلون علينا الزنازين . بعد ان كانت مفتوحة . ويؤخرون تسليم
الرسائل . واصبح على الرفيق المريض ان يكون طبيب نفسه . فحنى صيدلية
السجن التي كانت زجاجة من الماء الملون . اقلعوا في وجهنا . والذهاب الى
— الكانتين — لشراء السجائر والمعلبات . اصبح مهمة صعبة . والكلاب التي
دجناها على مدى شهرين . تذكرت انيابها . وحرس السجن صاروا
يهزون كرايهم .

الدفتر الحادي عشر

ويسقط المطر ...

الآن - وادي غزة - يغضب ، ويندفع الى البحر ، وهداياه على الشاطئ ،
- عشرات البحيرات الصغيرة - للبط القادم من بلاد بعيدة .
وادي غزة لم يستكر البحر . فهو يمضي اليه مفتوح الذراعين ، وقد اتسعت
ضفتاه . ما هو العام الرابع ، ولم نسمع هدير البحر .
الآن الصيادون في جباليا وغزة وخان يونس يذهبون وراء الامواج ،
ويصطادون - كلاب البحر - في عام ١٩٤٩ ، ذهب الصيادون بعيدا في بحرهم ،
تجاوزوا الكيلومترات الاربع التي حددها لهم . لقد نقلوا الاسلاك الشائكة
الى البحر .

- هل يطلع الصياد شبكته . ام يلقي بها في البحر ؟ ...
بشباكهم وجاءت زوارق الحراسة الاسرائيلية . قتلت الصيادين ولغتهم بالشبك
المرصع بالعشب والسك والقت بهم في البحر ليسحبهم التيار الى شاطئ غزة .
كي يكون في موتهم - على هذه الصورة - ذلك الانذار لبقية الصيادين .

يسقط المطر فوق زنازيننا في السجن الحربي . بعد عامين . لم نر فيها غيوماً
في سماء الواحات الخارجية .

المطر يكسر هواء السجن الحربي ، ويطرز اجساد المعتقلين بالشامات .
كل قطرة مطر شامة .

بعد المطر . جاءت عائلتنا من قطاع غزة . وكان القرار ان يذهب الجميع
الى - التخشيبية - حيث تتم الزيارة - لا زيارة فردية - . فالزائر الذي يأتي ،
كان يطلب - المعتقلين الستة - .

اصوات كثيرة انطلقت تطالب باطلاق سراحنا . والحمة العربية والعالمية ،
تد اخذت تشتد . طلاب جامعة لومومبا في موسكو ، قرروا تظاهرة تأخذ شكل
المهرجان من اجلنا .

- قالوا عند منتصف فبراير ، سيفرج عنكم .

ولكن منتصف فبراير قد جاء وانتهى فبراير ، وقرار الامراج لا يزال محجوزا
في جيب حسن المصليحي . كان لا يزال يقاتل للاحتفاظ بزنازينه وكرايجه وعصيه
وكلابه وسجانيه .

- سوف يصدا لحمهم في الزنزانة .

ولكن قرار الامراج قد جاء اخيراً في مارس ١٩٦٣ . مع الحرس الفلسطيني ؟

جاويش العنبر والسجانون يقتحمون زنازيننا وهم يصيحون :
— الامراج ... الامراج ...

برنمي كل رفيق فوق صدر رفيقه . هذه العائلة الشيوعية المؤلفة من سنه
ابناء . اربعة اعوام معا . الدقيق نمر . وعينا كل واحد منا في عيني الآخر .
لا احد يعرف ذلك اللون الذي ينوحي في عيني المعتقل . الذي لم تسقط عيناه .
زرب من النحاس في معطف سجنه . الآن يستطيع الواحد منا ان يرى الى
عيني امه وابيه . يستطيع ان يواجه البحر بتلك العينين اللتين لم يلوثهما
حبر الابداد .

— ماذا سنطروا ... ؟

بضحك جاويش العنبر ...

لم نكن نملك نياها ولا حقائب . ابقينا بعض النقود . واعطينا الباقي لحرس
السجن . خرجنا من بوابة العنبر . في انتظارنا كان احد ضباط المباحث الفلسطينيين
ومعه الحرس الفلسطيني . بعض الحرس كانوا من الذين قاموا باعتقالنا في ٢٣
ابريل ١٩٥٩ . وها هم يجيئون الآن بقرار الامراج .

علاء المباحث . كل واحد منهم . لا يتردد في اعتقال الجنين . حتى لو كان
في بطن امه . وفلسطين وكل فلسطين كانت ولا تزال وستبقى بالنسبة لهم هي :
الكلبش والزنازة والتكرباج .

ورغم كل ذلك فهم يصافحوننا الآن . يصافحون ويعانقون . وعليك ان تذكر .
ان عليك ان بعدد الى الزيتون . حينما نسألها . قطعة صابون . لكي نغسل .
في النوري الذي خرج من بوابة السجن الحربي . يتهدد احد الرفاق :
— لقد خرجنا .

بوابة السجن الحربي غلق وراعنا .

— ارى مار اقدام نمضي . ولا ارى آثار اقدام نعود .

هذا هو شعار السجن الحربي ...

ولكن . على حائط كل زنرانة . كتب كل رفيق :

— " من ابريل ١٩٥٩ الى مارس ١٩٦٣ " . وكان هذا . هو كل ما يمكن ان
نقدمه للسجين القادم .

تبتعد ابراج السجن الحربي الاربعة . تصبح في الشوارع . كنت انظر الى

الرفاق ، وأحس أن كل واحد منهم كان يريد أن يصرخ في الشارع :
لا مستشفى انبنت على مريض
ولا سجن انبنى على سجين
فلسطيني طالع من السجن
بعد أربع سنين
عقبال عندنا وعندكم يا حباب
وما أكثر المعتقلين في الشوارع ولكنهم يمشون

★ ★ ★

من يصبح شباك القطار . أجمل ورقة :
— سرتك زهرة عباد تيسر .
— ذراعاك صغيران .
— يدك هدهد .
— مشطك في شعرك سفينة . وكل خاتم في أصبعك طائر بجع .
— مخدة سليمان حشوها بالفراشات .
وأنا أضع رأسي فوق مجدافك .

★ ★ ★

القصيدة تركب القطار . ونحن صفار ، كنا نضع المسامير فوق القضبان
وننتظر مرور عجلات القطار فوقها ، ونعود نرحل بالمسامير المطروقة .
أربعة أعوام ونحن ممددون فوق القضبان . مر علينا أكثر من قطار .
العجلات طرقتنا ولكنهم لم يستطيعوا أن يطرقونا كما يريدون اقلاماً وأوراقاً
ودبابيس ومشابك وكرايبيج وكلبشات في مكاتب مكافحة الشيوعية .
ونحن صفار . كنا نصنع طائرات من الورق وعيدان البوص ، نصنع الطائرة
على شكل نجمة . من الورق المقصوص نلصق للنجمة ذنباً ، من ميزان الطائرة
تندلى الخيوط . تركض الطائرة في يدك بضعة أمتار ثم تفلتها في الريح . نطل
ترخي لها الخيوط حتى ترتفع بعيداً في السماء .
من نافذة القطار كان كل رفيق يرخي خيوط طائرته . والطائرة تتجه الى
محطة ربيع المصرية .

★ ★ ★

سماة فلسطين .
لقد بدأنا نتقرب . ينحول كل أصبع في يدك الى ناي .

الرفاق يندفعون نحو الشبابيك . يصرخ رفيق :
 — محطة رفح الفلسطينية .
 — الهواء الفلسطيني .
 وتكاد تسمع رائحة الهواء القادم من شجيرات الاثل .
 نزلنا في محطة رفح الفلسطينية . كان هناك لوري مغطى في انتظارنا .
 حينما تلمس قدمك التراب . يكاد يشربك .
 من مركز بوليس الرمال ، مضى كل واحد منا الى بيته .
 تمشي لبيتك . لقد نما الشعر قليلا فوق رأسك . تمشي كأنك خارج من
 نم سمكة علكتك .
 تريد ان تظل تمشي . في الزنزانة تريد ان تركب حصانا يجري بك حتى يدخل
 البحر . والآن في الشارع تريد زورقا ومجدافين .

★ ★ ★

بوابة البيت الخشبية مفتوحة . تدخل . اول ما تتطلع الى مكان شجرة
 الجميز . لقد قطعوها . يقولون ان جذور شجرة الجميز تكسر الاسمنت
 وتشقق الجدران .
 تتطلع الى الشبابيك . الزجاج لا يحتفظ بالمطر . والخشب لا يحتفظ
 بصوت الرعد . تمضي اكثر في بيتك . الشجر ذهب والحديقة الصغيرة
 زرعوها بالخشب .
 في البيت ساكن جديد .
 يأتي حارس البيت ، وقبل ان يسالك ماذا تريد يخرج صوتك من عينيك :
 — لا شيء . كان هذا بيتي .
 ويأتي من البحر صراخ موجة . تضرب الشاطئ ، ويرتفع رذاذها حتى
 يصل الى ابعد نجمة في السماء .

الفهرس

الصفحة

٥	الاهداء
٩	هذه الدفاتر
١٥	النزول الى الماء
٢٥	الدفترا الاول
٣٩	الدفترا الثاني
٥٥	الدفترا الثالث
٦٧	الدفترا الرابع
٧٥	الدفترا الخامس
٨٩	الدفترا السادس
١٠١	الدفترا السابع
١١٥	الدفترا الثامن
١٢٥	الدفترا التاسع
١٣٥	الدفترا العاشر
١٤٣	الدفترا الحادى عشر

طبع على مطابع شركة نكتوبز الحديثة - ش. م. ل. - بيروت
تموز ١٩٧٨

940

92

التنمين : ١٠٠ ل . أو ما يعادلها
الثنمين : ٤٠٠ ل . أو ما يعادلها